من أخلاق المؤمنين:

المراقبة

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

obeikandl.com

المراقبـــة

المؤمن الحق يعيش فى مراقبة دائمة لله تعالى... حركات وسكناته. أقواله وأفعاله... كل ذلك يؤديه مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى مطلع ورقيب لا تغيب عنه طرفة عين ولا أدنى من ذلك ولا أكبر. إذا نظر إلى ما لا يحل له أن ينظر إليه ناداه منادى المراقبة: حسبك! فإن هناك عيناً علوية سماوية ترقبك من فوق سبع سماوات... فيغض بصره. وإذا تحركت شفتاه ونطق بكلمة ما ناداه هذا المنادى: إن السميع البصير يسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء... وهكذا.

فالمراقبة تخلق فى أعماق المسلم محكمة عادلة قاضيها وحاجبها وشرطيها هذه الصفة الكريمة: " صفة المراقبة " التى لا تعرف المهادنة ولا المجاملة. وإنما تعرف الحق فلا تحيد عنه. وتدرك جيداً أن المرء داخله وخارجه كتاب مفتوح لا يخفى على الله منه شىء. يقول تعالى:{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}[1].

هب أنك دخلت محلاً عاماً. وقبل ذلك قيل لك: إن فى زوايا هذا المحل عدسات خفية تصور كل حركاتك وسكناتك. فأنت بكل تأكيد تمشى بحذر وتلمس المعروضات بحذر خشية أن يساء فهمك وتتهم زوراً وبهتاناً بأشياء لا تليق بك. وذلك بعكس ما لو دخلت محلاً عادياً فإنك تتصرف فيه بنوع من الحرية أكثرمما لو كنت فى المحل الأول ولو لم تحدثك نفسك بأنك سوف تأخذ شيئاً.

مثال ثان: أنت تقود سيارتك على إحدى الطرق السريعة. وتقرأ لافتة تقول " الطريق مراقب بالرادار ". فأنت بكل تأكيد سوف تلتزم بهذه السرعة المقررة ولا تتخطاها خشية المخالفة التى توقعك فى المحظور وتعرضك لغرامة مالية وسحب التراخيص التى تحملها. بل ربما قللت السرعة إلى أقل مما هو مكتوب لتكون فى أمان أكثر.

هذان المثالان يقربان لك معنى المراقبة التى تجعلك بعيداً عن معاصى الله حتى لا يسجل عليك الحفظة الكرام الكاتبون ما يشينك ويدينك فى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قال تعالى:{كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[2] وقال عز من قائل:{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[3].

---

(١) سورة المجادلة. الآية رقم (٧).
(٢) سورة الانفطار. الآيات أرقام: (٩، ١٠، ١١، ١٢).
(٣) سورة ق. الآية رقم: (١٨).

فى غيبة هذا الشعور... شعور المراقبة يقع الإنسان فريسة سهلة فى مخالب الشيطان. وبراثن النفس الأمارة بالسوء وشهوات الدنيا وتقلبات الهوى:

إنى بليت بأربع ترمينى ::: بالنبل قد نصبت علىَّ شراكا
يابليس والدنيا ونفسى والهوى ::: أين أرجو بينهم فكاكا
يارب ساعدنى بفضلك إننى ::: أصبحت لا أرجو لهن سواكا

نماذج من المراقبين لله

النموذج الأول: خلا رجل بامرأة وقال لها: نحن هنا فى هذا المكان لا يرانا إلا الكواكب. فقالت له: يا عجباً وأين رب الكواكب؟ ! وتولت عنه وهى تقول:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ::: خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ::: وأن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ::: وإن غداً للناظرين قريب

النموذج الثانى: ويوسف عليه السلام. ما الذى منعه من اقتراف الفاحشة وجميع الظروف المحيطة به تدفعه دفعاً إليها؟ لولا مراقبة الله عز وجل. ومن ذلك:

١ - أنه مطلوب وليس بطالب. ثم من التى تطلبه؟ إنها سيدة القصر! ! وقد صرفت الخدم. وأغلقت الأبواب. وزوجها العزيز فى عمله يصرف أمور الدولة وما أكثر مشاغله.

٢ - وهو شاب مكتمل الرجولة والفحولة وللشباب جنونه وفتونه.

٣ - هو غريب عن البلد لا يوجد من أقاربه ولا من معارفه ما يستحى منهم.

٥ - وهو معدود فى عداد الخدم فلا يخاف أن تهتز صورته إن انكشف أمره.

فالذى منعه من اقتراف الفاحشة إنما هو استشعاره رقابة ربه{إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [١].

(١) سورة يوسف. الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).

ولما كان من عباد الله المخلصين لم يفلح الشيطان فى إغوائه وإغرائه. فإن الشيطان - عليه اللعنة - قد اعترف أمام الله وأمام الملائكة المقربين وأمام آدم وحواء عليهما السلام أنه عاجز أمام المخلصين. فقال{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [1]. إن رقابة يوسف له عز وجل كانت طوق النجاة الذى وصل به إلى شاطىء الأمان ومرفأ السلام من مستنقع الذنوب والآثام.

النموذج الثالث: كان أستاذ يفضل تلميذه الصغير على بعض تلاميذه الكبار. فكلموه فى ذلك فقال: سأريكم فضله! ثم جمع تلاميذه كلهم وأعطى كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال لهم: ليذبح كل منكم الطائر الذى معه فى مكان لايراه فيه أحد. وعادوا وكل منهم قد ذبح الطائر فمنهم من دخل حجرة وأغلق بابها وذبح طائره، ومنهم من ذهب بعيداً عن العمران وذبح طائره، لكن التلميذ الصغير عاد بالطائر غير مذبوح. ولما سأله الأستاذ لماذا لم تذبح طائرك؟ قال: لم أجد مكاناً أكون فيه وحدى بل كان الله معى فى كل مكان. فقال الأستاذ: هل عرفتم بماذا فضلكم؟

إن الصالحين يعلمون علم اليقين أنهم فى معية الله عز وجل. وشعارهم فى ذلك (إذا أردت أن تعصى مولاك. فاذهب إلى مكان لا يراك فيه) وأين هذا المكان الذى يغيب عن الله؟!! إنه لا وجود له... وهم يعلمون علم اليقين أيضاً أن المعاصى إذا كان يؤمن أن الله لا يراه فقد كفر برب عظيم. وإذا كان يؤمن أن الله يراه فقد استهان برب عظيم وهما أمران أحلاهما مر أن يكفر الإنسان بربه أو أن يستهين به ونعوذ بالله العظيم من ذلك. جاء فى الحديث القدسى: «**يا ابن آدم... إن وجدتنى وجدت الخير كله. وإن فتنى فتنك وفاتك الخير كله**».

النموذج الرابع: يروى أن عمر بن الخطاب كان منحدراً من الجبل فرأى راعياً يسوق غنيمات أمامه. فقال له: بنى شاة من هذه الأغنام. فقال الراعى ياسيدى.. إن الغنم ليست لى وإنما أنا مؤتمن. فقال عمر وهو يختبره: قل لسيدك أكلها الذئب. فقال كيف أقول ذلك وأين الله؟ وأين الله؟ فتولى عمر وهو يبكى وذهب إلى سيده واشتراه وأعتقه. وقال له: أعتقتك هذه الكلمة فى الدنيا. وأرجو أن تعتقك من النار يوم القيامة.

---

(١) سورة ص. الآيتان رقم (٨٢، ٨٣).

درجات المراقبة

والمراقبة على درجـــتين: درجة المقربين ودرجة أصحاب اليمين... فأما درجة المقربين فهى بأن يستولى جل جلاله وعظمته على قلوبهم فلا يرون غيره ولا يحسون سواه. وربما كان إلى جوارهم من يكلمهم فلا يسمعون صوته ولا يرون شخصه. ولا يستغربن أحد ذلك فالواحد منا قد تسيطر عليه فكرة ما وتملأ بؤرة شعوره. وقد يكون جالسا مع امرأته وأبنائه وهم يخوضون فى شؤون الحديث. فإذا سألوه رأيه لم يستطع أن يقول شيئاً لأنه كان حاضراً غائباً! ! حاضراً بجسده غائباً بعقله وفكره. قال عز من قائل:{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} (١).

زعموا أن قيساً (٢) ذهب إلى بيت ليلى ليأخذ ناراً. ولما قربت لـه الموقد أخذ النار بيده ولم يحس بحرها. فإذا بلغ الاستغراق إلى هذا الحد فكيف لو أنه أحب الخالق عز وجل. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة. قالت إحدى نساؤه رضوان الله عليهم ينظر الرجل إلى المرأة وتنظر المرأة إلى الرجل؟ ! فقال ﷺ لها: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» (٣). ويوم الزلزلة تعترى الناس حال كتلك الحال. قال تعالى{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْـــلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} (٤).

ولعل التعبير بكلمة " مرضعة" يوحى بمدى شدة الذهول وهول الرعب الذى يملأ بؤرة الشعور. ذلك أن اللغة تفرق بين الصفة التى للرجل وتشترك معه فيها المرأة بالتاء... فنقول للرجل " قائم" وللمرأة " قائمة". وهو " شاعر" وهى " شاعرة " ولكن إذا كانت الصفة خاصة بالمرأة وحدها فإنها تستخدم بدون التاء فنقول " امرأة حامل " بدون تاء بمعنى أن فى بطنها جنيناً ذلك أن الرجل لا يحمل ونقول: هى " مرضع" بمعنى أن لها طفلاً ترضعه لأن الرجل ليس من شأنه الإرضاع ولكنا نقول هى " مرضعة " فى حالة ما إذا كان ابنها يرضع فعلاً ويمص ثديها. والأم فى هذا الوقت تكون أكثر حناناً وحبا لابنها: فإذا سمعت الزلزلة فإنها تذهل عن رضيعها. ومن ادعى أن لـه قلبين فهو كذاب.

---

(١) سورة الأحزاب. الآية رقم (٤).

(٢) هو قيس بن الملوح - الشاعر المعروف، وكان يحب ابنة عمه ليلى ولـه فى غزله أشعار كثيرة.

(٣) الحديث رواه الطبرانى. ورواته ثقات والقائلة هى السيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها.

(٤) سورة الحج. آية رقم (٢).

يروى أن رجلاً اسمه جميل بن معمر الفهرى كان يقول: لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد. فلما هزم المشركون يوم بدر [1] ومعهم جميل هذا. فرآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله. فقال لـه أبو سفيان: ما حال الناس؟. قال انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك؟ ! ! قال: ما شعرت إلا أنهما فى رجلى. فعرفوا يومئذ أنه لو كان لـه قلبان لما نسى نعله يده[2]...

وروى عن نبى الله يحيى عليه السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على الأرض. فقيل لـه: لم فعلت ذلك فقال: ما ظننتها إلا جدارا... هذه هى درجة مراقبة المقربين المراقبين لله تعالى يستولى على قلبه جلال الله وعظمته فلا يحس شيئا.

أما درجة أصحاب اليمين وهى أقل من الدرجة الأولى - فإنها تتمثل فى أن يغلب - لا أن يسيطر - على القلب استحضار عظمة الله ولكنهم يقفون على أعتاب الدرجة الأولى ويضرب الإمام الغزالى فى كتابه(إحياء علوم الدين) مثالا للتفرقة بين الدرجتين فيقول: لو أنك كنت جالسا وحدك ودخل عليك الملك فجأة إن جلال الموقف يجعلك تدهش وتحار كيف تتصرف. وهذا بعكس ما لو دخل عليك ابنك فأنت تصلح من هيئتك وتعدل ثوبك أحيانا... الدرجة الأولى سببها الجلال والثانية سببها الحياء.

إن المراقب لله قبل أن يقدم على أى عمل يسأل نفسه: لماذا أقدم على هذا العمل؟ وهل هو لله أم لغيره؟ وهل هو على وفق ما أمر الله به وسنة رسوله ﷺ أم غير ذلك؟... ويروى أن العبد ينشر لـه ثلاثة دواوين: الديوان الأول لم؟ والديوان الثانى كيف؟ والديوان الثالث لمن؟... ومعنى لم؟ لم فعلت هذا؟ وهل فعلته إرضاءً لله أم إرضاءً للناس؟... ومعنى كيف؟ أفعلته عن علم واقتداء بسنة الرسول ﷺ أم فعلته عن جهل ولم تبالِ به لأنك فعلت كما يفعل الناس ولم تدر أكنت على خطأ أم على صواب؟... ومعنى لمن؟ هل جعلت عملك لله وحده أم أردت بذلك الناس؟ فأما الذى يراقب الله فهو الذى يجعل عمله خالصا لوجه الله تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا

---

(١) وقعت غزوة بدر ليلة الجمعة الموافق السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة. وقد وصف القرآن يوم بدر بيوم الفرقان. قال تعالى:{إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} سورة الأنفال. الآية رقم (٤١).

(٢) تفسير القرطبى. صفحة (٥١٩٨). طبعة كتاب الشعب.

يشرك بعبادة ربه أحدا[1] وهو الذى لا يجده الله حيث نهاه. ولا يفتقده حيث أمره. ومن ثم يجزل له ربه عطاءه - جنات تجرى من تحتها الأنهار فيها مالا عين رأت. ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر - قال تعالى فى الحديث القدسى: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت. ولا إذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر** ثم قرأ رسول الله ﷺ:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ...} إلى قوله تعالى:{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[2].. وهذا الجزاء الجزيل لأنه قام بمقتضى كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأما الذين لا يراقبون الله ويقعون فى المعاصى ويراءون الناس بأعمالهم. فأعمالهم مردودة عليهم واستوجبوا مقت الله. ويقول الله لهم - ما معناه - يا عبدى.. أكلت رزقى. وترفهت بنعمتى. ثم عملت لغيرى. أما سمعت قول الله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[3] وقال عز وجل:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[4].

اعلم - أخى المسلم - أن الحساب عسير وأنه على مثاقيل الظهر{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}... [5] وكل شىء مكتوب. وسوف يتعجب المجرمون من دقة التسجيل ويقولون:{مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا}[6]. ولقد قال النبى: «**إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتله الطين بإصبعيه. وعن لمسه ثوب أخيه**» ولدقة المراقبين لله فى أعمالهم وجعلها خالصة لوجه الله تعالى كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق نظر وتثبت. فإن كان لله أمضاه. وإن كان لغير الله منعه إلى أن يحرر النية ويجعلها له عز وجل. فالمؤمن وقاف متأن يقف عند همه وليس كحاطب ليل.

---

(١) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

(٢) حديث صحيح من حديث سهل بن سعد الساعدى - تفسير القرطبى. صفحة رقم (٥١٨٦). طبعة كتاب الشعب.

(٣) سورة الأعراف. آية رقم (١٩٤).

(٤) سورة الحج. الآيتان رقم (٧٣، ٧٤).

(٥) سورة الزلزلة. آية رقم (٨).

(٦) سورة الكهف. الآية رقم (٤٩).

المراقبة والعلم

وهذا يستدعى العلم ليكون المسلم على بصيرة من عمله. ولعل هذا يفسر قول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» [١] والعلم فى هذا الحديث هو العلم الذى تصح به العبادة وتحرر به النية لابد أن يعلم المسلم متى تكون عبادته سليمة ومتى تكون فاسدة. وأن يعلم أين الحلال فيطلبه وأين الحرام فيتجنبه. ومن هنا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وركعتان من عالم عامل خير من ألف ركعة من عابد غير عالم.: «ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» [٢].

يحكي أن عابدا كان يتعبد في صومعته. فظهر له فأر وصار يقفز هنا وهناك حول العابد فقتله. فوسوس له الشيطان بأنه قتل نفسا وسفك دما. وماذا عليه لو أنه فتح له باب وأخرجه من الصومعة. وحار العابد كيف يكفر عن هذه الخطيئة؟ ! ! فوسوس إليه الشيطان قال: اجعل هذا الفأر في قطعة قماش وعلقه في رقبتك وصل به. وفعل العابد ذلك وصلي. وبهذا بطلت صلاته لأنه صلي وهو حامل للنجاسة. ولو أنه كان عالما لما وقع في وسوسة الشيطان.

وعلى المسلم الذي يطلب العلم أن يأخذ علمه من عالم عامل لأن هذا العلم دين. فانظروا عمن تأخذون دينكم. وأخوف ما يخافه الرسول ﷺ كل منافق عليم اللسان[٣] ولقد أوحي الله إلى داود عليه السلام لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي. أولئك قطاع الطريق على عبادي)... نعم إن الذين يفتون بغير علم ولا خوف من الله هم قطاع طريق لوصول إلى الله سبحانه وتعالي ولقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات. والعقل الكامل عند ورود الشـــهوات». قال الإمام علي:. الهوى شريك العمى. ومن التوفيق التوقف عند الحيرة) [٤].

---

(١) حديث شريف رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك.

(٢) حديث شريف رواه البخارى من حديث معاوية بن أبى سفيان.

(٣) جاء هذا المعنى فى الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله: (يخرج فى آخر الزمان رجال يختاون الدنيا بالدين. يلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من السكر. وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله أبىّ يغترون؟ أم على يجترئون؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران.

(٤) إحياء علوم الدين. الجزء رقم (٤). صفحة رقم (٣٤٣).

المراقبة وحساب النفس

يروى أن عبد الله بن قيس قال: شهدت بعض الغزوات. فسمعت رجلا يخاطب نفسه ويقول لها: أهلك ومال وعيالك. فرجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى: أهلك ومالك وعيالك فاطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك. قال عبد الله فعزمت على متابعة الرجل فجعل يقاتل ولا يفر وما زال كذلك حتى لقى الشهادة فى سبيل الله. وأقبل عبد الله على الشهيد فوجد بجسده أكثر من ستين طعنة... أرأيت كيف يحاسب المراقب لله نفسه. وكيف أن هذا الشهيد حاسب نفسه فذكرها بمواقفه وموافقته لنفسه قبل ذلك.

أما اليوم فقد ثبت فى المعركة ولم يفر حتى لقى الشهادة فحاز سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

وعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء[1] وجعل يقول لنفسه: ذوقى ونار جهنم أشد حرا، أجيفة بالليل[2] بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتنى نفسى. فقال له النبى ﷺ: «**ألم يكن لك بد من الذى صنعت؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله بك الملائكة**». ثم قال النبى ﷺ لأصحابه: «**تزودوا من أخيكم**». فجعل الرجل يقول: يافلان: ادعوا الله لى يا فلان... ادعوا الله لى. فقال النبى ﷺ: «**ادعوا لهم**». فقال اللهم اجعل التقوى زادهم. واجمع الهدى على أمرهم. وجعل النبى ﷺ يقول اللهم سدده. فقال الرجل: واجعل الجنة مآبهم [3]... هذه أمثلة لأناس راقبوا الله فحسبوا أنفسهم ففازوا وربحوا.

تعالوا نقترح طريقة عملية لمحاسبة النفس... فنقول لو أن إنسان كان صادقا مع نفسه. ووضع حجرا فى بيته كلما أذنب ذنبا. فحجرا يضعه لنظرة محرمة. وحجرا لكلمة غيبة. وثالثا لأنه سخر من أخيه المسلم واستمر على ذلك أسبوعا واحدا فقط ترى كم يكون عدد الأحجار؟ لاشك أنها تزحم بيته وربما لم يجد مكانا لجلوسه أو لنومه! فكيف بمن عاش وهو مكلف ستين سنة؟ إن هذا مجرد تصور فقط. وهو تصور يصيب الرأس بالدوار والصداع. سوف يأتى العصاة يوم القيامة بأهرامات وتلال من المعاصى[4] نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) الرمضاء هى الرمال الملتهبة من شدة حرارة الشمس.

(٢) يعنى أنه لا يقوم الليل ويكسل عن الطاعة بالنهار.

(٣) الرياض اليانعة، صفحة رقم (٢٨) - ونقلاً عن أبى الدنيا.

(٤) ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى:{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} سورة العنكبوت، الآية رقم (١٣).

ويذكر صاحب كتاب " إحياء علوم الدين " [1] أن رجلا حاسب نفسه. وافترض أنه يعمل كل يوم ذنب واحدا وكان قد عاش ستين سنة مكلفا. وهاله هذا الكم من الذنوب فشهق شهقة خرجت معها روحه. فسمع الحاضرون قائلا يقول: يا لكى من رقدة إلى الفردوس الأعلى.

إن المراقب لله يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه فى تجارته. وإذا كان الشريك يحاسب شريكه على رأس ماله وعلى مدى الربح أو الخسارة. فعلى المراقب لله أن يحاسب نفسه كذلك. ورأس المال هو الفرائض التى فرضت عليه والربح هو النوافل. والخسارة هى المعاصى. فإذا سلم المسلم رأس ماله - أى الفرائض - فهو من الناجين إن شاء الله. وعليه أن يحمد الله على ذلك. فإن تبقى بعضها فعليه أن يأتى به فدين الله أحق بالوفاء. وإن كان فى أدائها قصور ما فليكثر من النوافل لتجبر هذا الخلل. وإن اشتغل بمعصية الله فعليه أن يبادر التوبة فالتائب من الذنب. كمن لا ذنب له [2].

قال حاتم الأصم اخترت أن أعرف أربعة أشياء لا أبالى بعدها إن جهلت:

الأولى: علمت أن دين الله تعالى لا يقوم به غيرى فأنا مشغول به [3].

الثانية: علمت أن رزقى يقوم لى وحدى لا يزيد ولا ينقص فاطمئن قلبى [4].

الثالثة: علمت أن الموت يطلبنى ولا مفر منه. فاستعددت له [5].

الرابعة: علمت أن الله مطلع على. فلذلك استحييت أن أعصيه [6].

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يراقبون ربهم ويحاسبون أنفسهم.

* * * * *

البسيط - الوسيط - الأسماء الحسنى - منهاج العابدين... وغير ذلك الكثير والكثير.

(٢) حديث شريف رواه الطبرانى وابن ماجة من حديث عبدالله بن مسعود.

(٣) قال تعالى:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} سورة المدثر. الآية رقم (٣٨).

(٤) قال تعالى:{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} سورة الذاريات الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).

(٥) قال تعالى:{إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} سورة الجمعة. الآية رقم (٨).

(٦) قال تعالى:{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} سورة طه. الآية رقم (٤٦).

من أخلاق المؤمنين:

الصبر

obeikandl.com

الصـــبر

من الأخلاق التي يجب إن يتحلى بها المسلم خلق الصبر. فبهذا الخلق الكريم تؤدى العبادات. وتنجز الاعمال. ويتميز الصابر عن غيره سلوكا وعملا. ويكتب لـه الفوز فى الدنيا والآخرة.. والعبادات تحتاج فى أدائها الى صبر يجعل المسلم يستهين بما يقابله فى أدائها من مشاق؛ لأنه ينظر الى ما أعده الله للصابرين من أجر لا يعلم مقداره إلا الله{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}(١).

فالجهاد وهو ذروة سنام الإسلام. لا بد لـه من الصبر. قال تعالى{يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(٢) وقال عز من قائل فى نفس السورة:{فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْـفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} (٣) والآيات التي تحث على الصبر فى الجهاد مبثوثة في ثنايا القران الكريم.

والصوم نصف الصبر كما ذكر رسول الله ﷺ حيث قال: «الصوم نصف الصبر». فالصائم الذي يجوع والطعام بين يديه. ويظمأ والشراب أمام عينيه لو لم يكن صابرا لأفطر.. وقس على ذلك الزكاة والحج. فالمسلم فى حاجة الى خلق الصبر لتتم عبادته، وليكون أهلا لأن يثاب عليها ثوابا هو خير وأبقى -{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَـاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٤) ولقد وردت مادة الصبر فى القران الكريم أكثر من مائة مرة. وهذا يدل على مكانته وعلو شأنه.

صبر الله على عباده

يكفى الصبر شرفا أن يكون اسما من أسماء الله تعالى؛ فمن أسمائه " الصبور" وهكذا بصيغة المبالغة - فما أكثر صبر الله تعالى على عباده فهو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم،

---

(١) سورة الزمر آية رقم (١٠).
(٢) سورة الأنفال. الآيتان رقم (٤٥، ٤٦).
(٣) سورة الأنفال. آية رقم (٦٦).
(٤) سورة النحل. آية رقم (٩٦).

وهو الذي صحح لهم أبدانهم. وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة -{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّـهِ لاَ تُحْصُوهَا} [1]... الأرض التي تخرج الطعام، والسماء التي ينزل منها الماء، وما بينهما من الهواء. والبحار والأنهار، والفلك التي تجرى بما ينفع الناس، كل هذا من الذي سخره والله؟ إنه الله رب العالمين. فهل أقر الناس بذلك؟ ! ! وهل شكروه على هذه النعم؟ إن قارون ومن على شاكلته ينسبون الفضل لأنفسهم وشعارهم كما ردده أمامهم الى النار -{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [2] وكذبوا والله وكذبوا هم أيضا. ففي خلق الله من هو أذكى واعلم. وأقوى وأحزم. ولكن رزقه ليس مثلهم مما يدلك على أن الله هو صاحب النعم التي لا تحصى والآلاء التي لا تعد ولا تستقصى. قال الله تعالى فى الحديث القدسي: «إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم. أخلق ويعبد غيري. وأرزق ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صّاعد». ومع كل ذلك لم يضق بخلقه. ولم يصرف نعمه عنهم؛ لأنه الصبور ولا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. قال تعالى فى الحديث القدسي: «شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وكذبني ولم يكن له ذلك. أما شتمه إياى فزعمه أن لي صاحبة وولدا. وأنا الله الواحد الأحد الذي لم اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأما تكذيبه اياى فزعمه أنى لا أعبد. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»... أو كما قال رسول الله ﷺ راويا عن ربه [3].

عجبت لجاهل عاص ::: زه بعصيانه
ويسمع صوته الحاني ::: يه بقرانه
أنا التواب يا عبدي ::: ترجو لإحسانه
فيعرض من شقاوته ::: عا وحى شيطانه
ولو يدرى لعاد إليه ::: يسكب ماء أجفانه [4]

ودلائل وحدانية الله وبراهين وجوده لا تحتاج الى ذكر. وفى كل شيء له آية تدل على إنه الواحد.

(١) سورة إبراهيم. آية رقم(٣٤).
(٢) سورة القصص. الآية رقم (٧٨).
(٣) الحديث بمعناه فى صحيح البخاري فى كتاب التفسير - سورة القصص.
(٤) هذه الأبيات جزء من قصيدة " عشقت الله " لفضيلة الشيخ / عبد العاطى... انظر كتاب عبدالعاطى سليم... شاعرا وأديبا.

يروى أن مجوسيا زار الخليل إبراهيم عليه السلام ولما قدم له الطعام سمي المجوسي على الطعام باسم النار التي يعبدها. ولكن الخليل قال له: قل باسم الله. ولكن الرجل قال: لا اعرف ذلك! ولا أسمى إلا باسم الإله الذي أعبده. فزجره الخليل الغيور على وحدانية الله وأخرجه من بيته. ونزل الوحي على الخليل: " لم تصبر ساعة على هذا الرجل وهو يأكل من خيرنا ونصبر عليه من ستين عاما " وأدركه الخليل وأعاده وذكر له عتاب ربه فيه وهنا قال الرجل: ربك يعاتبك فى أنا برغم أننى لم اذكر اسمه! أشهد أن هذا هو الرب الصبور. واشهد ألا إله إلا الله وإنك رسول الله. أرأيتم كيف يصبر الله على خلقه. وأنه لا يعجل كعجلة أحدنا -{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [1]. وإذا كان الصبر صفة من صفات الله فهو كذلك صفة من صفات الرسل. قال تعالى لنبيه محمد ﷺ:{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}[2].

خبر الرسول ﷺ في الدعوة إلى ربه

صبر الرسول ﷺ فى الدعوة الى ربه. ولقد جاء الأمر للرسول ﷺ بالصبر فى أول مراحل الدعوة؛ لأن الصبر سوف يكون وسيلته فى تبليغ أمر ربه وسلاحه فى انتصاره على قومه. قال فى سورة المدثر وهى من أوائل ما نزل من القران الكريم:{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[3]. والآية بنظمها الشريف تضع الهدف من الصبر وهو أن الصبر يكون لله - {وَلِرَبِّكَ} - فليس الصبر من أجل الرياء ولا الشهرة ولا أن يقال عليه إنه صابر. ولكن الصبر لله ابتغاء مرضاته. وطلبا لما أعده عنده للصابرين من الأجر العظيم.

إن طريق الدعوة الى الله ليس مفروشا بالورود والأزهار والرياحين؛ ولكنه مفروش بالأشواك والمؤامرات والتعذيب البدنى والنفسي... ولكن الصبر هو الذي يجعل هذه الأشياء عذبة مستساغة لأنها فى طاعة الله.

فليتك تحلو والحياة مريرة ::: وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ::: وبيني وبين العالمين خراب

(١) سورة يونس. الآية رقم (١١).
(٢) سورة النمل الآية الأخيرة.
(٣) آية رقم (٧).

إذا صح منك الود فالكـــل هـــين ::: وكل الذى فوق التراب تـــراب [1]

أي أذى لقيه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام فى سبيل الدعوة. وهو الذي كان قبل أن يبعث محل التقدير، فقد كانوا يلقبونه " الصادق الأمين ". كانوا يضعون عنده ودائعهم. ولا يرون أمينا يغنى غناءه فى ذلك. لقد هللوا حين دخل عليهم وهم مختلفون فى وضع الحجر الأسود فى مكانه عندما كانوا يبنون الكعبة. وقالوا: رضينا بالأمين. ولم يعترض أحد عليه ﷺ حينما أمر ﷺ كل زعيم قبيلة أن يأخذ بطرف ثوبه الشريف الذي وضع عليه الحجر. وأن يرفعوا جميعا الحجر. ثم يأخذه هو ﷺ ويضعه فى مكانه. ولو أن أحدا غير الصادق الأمين فعل ذلك لسلت السيوف من أغمادها. وسالت الدماء وصار ما لا تحمد عقباه[2].

هذه هي مكانة رسول الله ﷺ عند قومه قبل أن يبعث. أما بعد البعثة فحدث عما لقيه منهم من أذى نفسي وأذى بدني. قالوا عنه ساحر [3] وقالوا شاعر [4] وقالوا مفتر [5]. وغير ذلك كثير. وكانوا يضعون فى طريقه الأشواك. ويلقون عليه وهو ساجد بين يدي ربه فرث الجذور [6]. ويكفى أنهم أخرجوه من بيته ومن بلده واستولوا على بيته وباعوه. ومع كل هذا كان رسول الله ﷺ صابراً محتسباً منفذا قول الله تعالى:{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}. بل صبر رسول الله ﷺ صبرا جميلا كما قال الله تعالى:{فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً} [7]. وقال أيضا:{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}[8]. ولم يقابل السيئة بالسيئة ولكنه عفا وصفح الصفح الجميل. حتى حينما أمكنه الله منهم غداة فتح مكة وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا... أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبـــوا فانتم الطلقاء» [9]. وهذه نتيجة الصبر وتلك نهايته.

---

(١) ينسب هذا الشعر للسيدة / رابعة العدوية رضي الله عنها.

(٢) القصة بأكملها ذكرها العلامة صفى الرحمن المباركفورى فى كتاب " الرحيق المختوم " الصفحة رقم (٥٨) - وهى فى سيرة ابن هشام. الجزء الأول. الصفحة رقم (١٠٢). مطبعة الأنوار المحمدية.

(٣) قال تعالى:{وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} سورة ص. الآية رقم (٤)

(٤) قال تعالى:{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ} - سورة الحاقة. الآيتان رقم (٤٠، ٤١).

(٥) قال تعالى:{إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} - سورة الفرقان الآية رقم (٤).

(٦) ما فى كرش الحيوان المذبوح.

(٧) سورة المعارج. آية رقم (٥).

(٨) سورة المز مل. آية رقم (١٠).

(٩) الرحيق المختوم. الصفحة رقم (٤٠٤).

والصابر الحق هو الذي لا يستطيل مدة صبره حتى لا يتطرق اليأس الى قلبه وذلك كما قال الله تعالى فى آخر سورة آل عمران{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ونلاحظ أن الآية الكريمة جمعت بين الفعلين{اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} فمعنى صابروا - والله أعلم - كونوا أكثر صبرا من عدوكم. وذلك أن المشركين كانوا يعتصمون بالصبر فى التمسك بالباطل فلا بد أن يتفوق عليهم الموحدون فى الاعتصام بالصبر على الحق. قال تعالى على لسان المشركين وهم يتحدثون عن رسول الله ﷺ{إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا} [1]. وقال تعالى:{وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [2]. وهكذا فأنت ترى أن أهل الباطل والشرك يصبرون عليه فأحرى بأهل الهدى والحق أن يصابروهم وأن يتفوقوا عليهم فى هذا المضمار "مضمار الصبر".

يذكر ابن كثير - رحمه الله[3] - إن جماعة من المشركين ذهبوا الى أبى طالب عم النبي ﷺ وقالوا له: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن أخيك محمد. فمره أن يكف عن شتم آلهتنا ونحن ندعه وإلهه. فبعث أبو طالب الى رسول الله ﷺ فجاء وجلس أبو جهل - عليه اللعنة - بين رسول الله ﷺ وبين أبى طالب حتى لا يرق أبو طالب لابن أخيه لو جلس الى جواره. وقال أبو طالب: يا محمد.. هؤلاء مشيخة قريش وسراتهم. وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. فقال الرسول ﷺ: «أفلا أدعوهم الى ما هو خير لهم»؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ أدعوهم أن يقولوا: «كلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل - عليه اللعنة - فما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها فقال ﷺ: «تقولن لا إله إلا الله». فنفروا وقالوا: سلنا غيرها فقال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها فى يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا غضابا وقالوا: والله لنشتمك وإلهك الذي أمرك بهذا... وهذا نموذج من صبره ﷺ على أذى قومه. ولقد صبر أصحابه رضي الله عنهم على الإيذاء وبحسبك أن نذكر لك بعض الأسماء وأنت عليم بما جرى لهم: فهذا بلال. وهذا عمار وأبواه. ومن قبله ياسر وسمية. وغير هؤلاء صبروا على ما أوذوا به فجعلهم الله سادة فى الدنيا والآخرة بصبرهم على التمسك بدعوتهم. ولا يحسبن أحد أن الصبر لا يكون إلا على المكروه فقط! بل يكون

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٤٢.

(٢) سورة ص الآية رقم ٦.

(٣) هو العلامة الحجة إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي الشافعي، ولد سنة ١٠٧ هو توفى عام ٧٧٤ هـ، وله تصانيف كثيرة من أشهرها: تفسير القرآن الكريم - والبداية والنهاية - وقصص الأنبياء... وغير ذلك كثير.

أيضا على النعمة. والصبر عليها يكون بأداء الشكر لواهبها عز وجل فلا يبطر بها ولا ينسبها الى نفسه. فقال تعالى:{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [1] وقد رأينا نموذجا لمن نسب فضل جمع المال الَى نفسه وهو قارون. فلنذكر نموذجا آخر وكيف شكر الله تعالى على منحه إياه. ذلكم هو سليمان عليه السلام فقد أعطاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وعلمه منطق الطير. وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب وسخر له الشياطين يفعلون له ما يشاء من محاريب. وتماثيل وجفان كالجواب [2] وكان فى ملكه من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يريد إليه طرفه... فماذا قال نبي الله سليمان مع هذا الملك الواسع؟ قال:{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[3].

ولا شك أن هذه مكانة عالية لان كل نفس تحب أن ينسب الخير إلى نفسها إلا من عصم الله تعالى. وكون النعمة ابتلاء مرا جاء فى قول الله تعالى:{فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [4]. يشعرون. وقال فى أية أخرى{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّال وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ}. وليست زيادة المال وكثرة البنيين خيرا محضاً بل قد يكون ذلك ابتلاء من الله تعالى. ذلك أن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطى الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. ومن عباد الله من لو سأل الله لأعطاه [5]. ومنهم من لو سأله علاقة سوط لم يعطه سؤاله! ! ذلك لكرامة الأول. ولا لمهانة الثاني. ولكنها الدنيا التي ليست بدار جزاء ولكنها دار تكاليف وابتلاء.

ولقد جاء الأمر صراحة للرسول وهو فى الوقت ذاته أمر لكل فرد فى أمته. قال تعالى:{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [6].

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله فرآه مضجعا على حصير قد أثر فى جسده الشريف. وتأثر الفاروق بما يراه وبما يعلمه عن كسرى وقيصر

---

(١) سورة العلق. الآيتين رقمي (٦، ٧).

(٢) قصاع كبار كأنها الأحواض التي يجمع فيها الماء. والمعنى أنها كبيرة جدا.

(٣) سورة النمل الآية رقم (٤٠).

(٤) سورة الفجر. الأيتان رقم (١٥، ١٦)

(٥) وقد قيل فى هذا المعنى: " إن لله عبادا لو رفعوا إليه حواجبهم لقضيت حوائجهم... نسأل الله أن نكون منهم اللهم آمين.

(٦) سورة طه. الأية رقم (١٣١).

وكيف ينامون على فرش الحرير وبكى. وسأله الرسول ﷺ ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر ينعمان وأنت كما أرى؟ فقال سيد الزاهدين محمد ﷺ: «أو فى شك يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا» [1]... ولو كانت الدنيا دليل رضا الله أو سخطه لكان رسول الله ﷺ أغنى الناس وهو الذي راودته الجبال الشم أن تكون ذهبا بين يديه. ولكنه رضي أن يعيش مسكينا وأن يحشر فى زمرة المساكين.

قال أحد العارفين: " البلاء يصبر عليه المؤمن. والعافية لا يصبر عليها إلا صديق. ولما فتحت الدنيا للمؤمنين وامتلأت بيوت أموالهم وخزائنهم بالمال قال أحدهم: " ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا. وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ". ويشرح الإمام الغزالي ذلك فيقول " إن الجائع عند غيبة الطعام اصبر منه إذا حضرت الأطعمة اللذيذة وقدر عليها. ومن العصمة إلا يجد. وبذلك قد يكون الحرمان نوعا من العصمة ".

ومن بعض ثواب الصابرين ما ورد من نصوص قرآنية ونبوية:

١ - حفظ الله الصابرين من كيد الأعداء وتدبيرهم. قال تعالى:{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}[2].

٢ - بشارة الله لهم قال تعالى:{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[3]. وقد رتبت الآية ثلاثة أشياء على الصبر. وهى الصلاة من الله بمعنى الثناء عليهم. والأمن من عذاب الله ثم رحمته لهم. ثم الهداية والتوفيق لصالح الأعمال... وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فقال: " نعم العدلان ونعمت العلاوة "[4]... أي إنه شبه الأشياء الثلاثة وهى: الصلاة من الله والرحمة والهداية. بثلاثة أشياء يحملها البعير وهى: العدلان والعلاوة.

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح بلفظ: " أما ترضى يابن الخطاب أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا " ورواه ابن حبان فى صحيحه أيضا.

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (١٢٠).

(٣) سورة البقرة. الآيتان رقم (١٥٥، ١٥٦).

(٤) العدل بكسر العين ما يوضع على جانب البعير ليكون معادلا للعدل فى الجانب الآخر. والعلاوة ما يوضع على ظهر البعير.

ذكروا أن أم سلمة أم المؤمنين [1]. قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ جاءها زوجها أبو سلمة من عند رسول الله ﷺ وقال لها: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصيب أحد من المسلمين شيء فيسترجع [2] عند المصيبة. ثم يقول: اللهم اؤجرني فى مصيبتي واخلف لي خيرا منها». ألا فعل ذلك به. قالت أم سلمة: فحفظت ذلك. فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم اؤجرني فى مصيبتي واخلف لي خيرا منها. فلما رجعت الى نفسي وقلت: من أين لي من هو خير من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله ﷺ وأنا ادبغ إهابا (جلدا). فغسلت يدي من القرظ وأذنت له. ووضعت له وسادة حشوها من الليف فقعد عليها. فخطبنى إلى نفسي. فما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله. ما بي ألا يكون بك الرغبة. ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئا تكرهه فيعذبني الله به. وأنا امرأة قد دخلت فى السن [3]. وأنا ذات عيال. فقال ﷺ: «أما ما ذكرت من الغيرة الشديدة فسوف يذهبها الله عنك. وأما ما ذكرت من السن فقد اصابنى مثل الذي أصابك. وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي». فقالت: سلمت لرسول الله ﷺ وقالت: فقد أبدلنى الله خيرا من أبى سلمة رسول الله ﷺ[4]...

(١) هي السيدة الطاهرة هند بنت أبى أمية ابن المغيرة بن عبدا لله بن عمر بن مخزوم. وهى بنت عم خالد بم الوليد وهى من المهاجرات الأول. زوجها الأول هو أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومى. اخو النبي من الرضاعة. تزوجها النبي بعد وفاة وزجها فى سنة أربع من الهجرة. وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين. وكانت من أجمل النساء واشهرهن. وروت عن رسول الله أحاديث كثيرة.

(٢) أى يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) تقصد أنها كبيرة فى السن

(٤) الحديث بمعناه ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. الجزء رقم ٤ (الصفحة رقم (٣٣٦). طبعة دار الريان للتراث - والحديث بتمامه فى مسند الإمام احمد وابن حبان فى صحيحه.

مجالات الصبر

من مجالات الصبر الذي ينبغي للمؤمن أن يكون صابرا فيها ما يأتي:

١ – **الصبر على أداء العبادة**: وقد قدمنا طرفا من ذلك - ونزيد هنا أن العبادة تستدعى الصبر قبل الإتيان بها. وفى أثناء تأديتها. وبعد الانتهاء منها... فأما الصبر الذي يكون قبل الإتيان بها فيكون ذلك بإخلاص ومجاهدة النفس وجعل الهدف من هذا العمل إنما هو لله تعالى. فالله عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك. وهذا يستدعى صبرا فى قهر النفس وتنقيتها من أية شائبة من الشوائب التي تعرض للإنسان وهو ينوى القيام بأعمال العبادة. يقول رسول الله ﷺ: «الناس هلكى إلا العالمين. والعالمون هلكى إلا العاملين. والعاملون هلكى إلا المخلصين والمخلصون على خطر عظيم». ويقول الله تعالى:{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [١] فقدم الصبر على العمل.

والصبر فى أثناء العمل يستدعى الإتيان على أكمل وجه وفق ما شرع الله وما سنه رسول الله ﷺ. فلا تفتر العزيمة ويؤديه الإنسان كيفما اتفق. ذلك لان الله لا يقبل من العمل إلا إذا كان موافقا لشرعه [٢] والله لا تأخذه سنة ولا نوم. وهو العليم الذي لا يعذب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض. ولعل ذلك يفهم من قوله تعالى{نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا} فقدم العمل هنا على الصبر.

وبعد الانتهاء من العمل يكون الصبر بعدم المن والأذى والتحدث به بقصد الشهرة والرياء. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى} [٣]. وخير مثال على ذلك إبراهيم عليه السلام الذي صبر على ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل. وهو الذي أعطاه الله إياه على الكبر ثم هو الغلام الحليم. وقد بلغ معه السعي... فصبر على هذا الابتلاء. وعرض الأمر على ابنه إسماعيل عليه السلام. وكان الغلام عند حسن ظن أبيه. فقد قال له:{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [٤]. ولقد فهم إسماعيل عليه السلام أن رؤيا أبيه وحى. فقال: " يا أبت افعل ما تؤمر " ولم

---

(١) سورة هود. الآية رقم (١١).

(٢) سئل الفضيل بن عياض عن العمل المقبول فقال: " أصوبه وأخلصه ". أى ما كان على سنة النبى وخالصاً لوجهه تعالى.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم (٢٦٤).

(٤) سورة الصافات. الآية رقم (٢).

يقل " يا أبت افعل ما رأيت ". وكانت نتيجة صبر الوالد والولد أن فداه الله بذبح عظيم. وأعطى الوالد ولد آخر هو إسحق وبشر سارة امرأة إبراهيم الخليل بإسحق. وبأن إسحق سوف يلد ولدا هو يعقوب. فهي بشارة مزدوجة وليست واحدة. ولنا أن نفهم من ذلك بشارة ثالثة هي أن تعيش سارة لترى الابن والحفيد. فهي بشريات وليست واحدة.

٢ – المجال الثاني هو مجال الصبر على شدائد الحياة ومشـــقاتها: فالإنسان في هذه الحياة لم يأخذ على الله عهدا أن تكون حياته خيرا كلها. وإنما هي مزيج من الخير والشر. من الصحة والمرض. من الفقر والغنى. من السراء والضراء... قال تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [(١)]. ومن رحمة الله تعالى أن قال:{بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ} كل الخوف. وليس كل الجوع أو كل الثمرات فهذه الدنيا. وتلك طبيعتها...

ومكلف الأيـام ضـد طباعهـا ::: متطلب في المـاء جـذوة نـار[(٢)]

وإمام الصابرين في هذا المجال هو أيوب عليه السلام. فقد كان صاحب نعمة وكان له أولاد. وكان صحيح البدن معافى. فابتلاه الله بالمرض في جسمه ووفاة أولاده وذهاب أمواله. فصبر ولم يشك ولم يتبرم. واستمر على ذلك ثماني عشرة سنة. ثم توجه الى الله بقوله:{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [(٣)]. وانظر الى أدبه العالي في الدعاء وتعلم منه. فهو يقول:{مَسَّنِيَ الضُّرُّ} وهذا دعاء مجمل فلم يقل: " اعتل بدني وساءت صحتي وفقدت موالي ومات أولادي ". وانظر الى التعبير " مسني " وانظر - كذلك - الى قوله:{وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} لتدرك كيف كان مؤدبا في دعائه ولم يقترح على ربه شيئا معينا. وكانت نتيجة هذا الصبر أن قال الله له:{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}. وأعاد الله له أهله ومثلهم معهم. وأعاد عليه أمواله... وهذه نتيجة الصابرين. ولذلك مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله:{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[(٤)]. فقد مدح الله عبوديته. وعلل ذلك بأنه كثير الرجوع إليه سبحانه. ولا ننسى أيضا صبر نبي

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم (١٥٥).

(٢) وقال آخر:

هـي الـدنيا تقـول بمـلء فيهـا ::: حـذار حـذار مـن بطشـي ومـن فتكـي
فـلا يغـرركم منـي ابتسـام ::: فقـولي مضـحك والفعـل مبكـي

(٣) سورة الأنبياء. الآية رقم (٨٣).

(٤) سورة ص. الآية رقم (٤٤).

الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف. حيث قال:{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[1] وقال أيضا فى صبره على يوسف وأخيه الذي استبقاه يوسف معه. وعلى ابنه الأكبر الذي لم يعد مع إخوته{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [2] وصبر يعقوب عليه السلام على يوسف صبر عظيم. لما يأتي:

١ - فهو الصغير. وللصغير مكانته فى قلب أبيه. وقد سئل أحد العقلاء عن أحب أولاده إليه فقال: " صغيرهم حتى يكبر. وغائبهم حتى يحضر. ومريضهم حتى يشفى ".

٢ - وهو الذي حرم عطف الأم وهو مازال صغيرا.

٣ - وهو الذي تنبأ له والده بأنه سوف يجتبيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث. ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق. وذلك حينما قال له:{يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[3].

٤ - وهو الجميل الذي أذهل جماله النسوة فقطعن أيديهن بمجرد رؤيتهن له.

٥ - وهو الغائب الذي لا يعرف له مكانا ولا مصيرا.

٦ - وهو الذي غدر به أخوته وهم - فى الوقت ذاته - أبناؤه:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ::: على النفس من وقع الحسام المهند [4]

ولم يشك يعقوب - عليه السلام - بثه وحزنه إلا الى الله. وابيضت عيناه من الحزن. وكانت نتيجة صبره ان جمع الله شمله بأولاده وأعاد عليه بصره. ودخل بنوه مصر آمنين وعلى أريكتها ابنه يوسف[5].

---

(١) سورة يوسف. الآية رقم (١٨).
(٢) سورة يوسف الآية رقم (٨٣).
(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٤).
(٤) الحسام هو السيف.
(٥) ومن مجالات الصبر أيضا الصبر فى البعد عن الحرام. فترك الإنسان لشهوته وغلبة نفسه أمام مغريات الحياة يعد نوعا من أعظم أنواع الصبر. ولنا فى يوسف خير شاهد ودليل. فقد هيئت له أسباب الوقوع فى الرذيلة. لكنه صبر على ذلك ففاز ونجا. قال تعالى حاكيا قوله: " معاذ الله إنه ربى أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ".

مكانة الصبر[1]:

إن كثيرا من الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها المسلم ترتكز في أساسها على الصبر... فالحلم مثلا لا يعرف إلا إذا صبر الإنسان على من يؤذيه. فالحلم نوعا من أنواع الصبر... والشجاعة التي يتفاخر بها ويدعيها حتى من ليس بأربابها وذلك لشرفها ليست إلا نوعاً من أنواع الصبر. فلو لم يصبر المقاتل على شدائد الحرب لم يكن شجاعا؛ فالشجاعة نوع من أنواع الصبر... والعفة نوع من أنواع الصبر؛ لأنها في حقيقتها الصبر على شهوة البطن والفرج. ولو لم يتحقق هنا الصبر لم تكن عفة.

وقس على ذلك بقية الصفات الأخرى لتدرك كيف أن الرسول قال: «الصبر نصف الإيمان»[2].

نسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين الصابرين. إنه نعم المولى ونعم النصير..

* * * * *

(١) ذكر الله في القرآن الكريم ثواب الصابرين، من ذلك:
(أ) أن لهم الخير... قال تعالى:{وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ} - سورة النحل، الآية رقم (١٢٦).
(ب) أنهم محفوظون من الله... قال تعالى:{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٢٠).
(ج) أنه من عزائم الأمور... قال تعالى:{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٨٦).
(د) أن الله معهم.. قال تعالى:{اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} - سورة البقرة، الآية رقم (١٥٣).
(هـ) أن الله يحبهم... قال تعالى:{وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٤٦).
(و) أن لهم الجنة... قال تعالى:{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً} - سورة الإنسان، الآية رقم (١٢).
(ز) أن لهم الفوز... قال تعالى:{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} - سورة المؤمنون، الآية رقم (١١١).
(٢) رواه الترمذي.

من أخلاق المؤمنين:
الخوف من الله

obeikandl.com

الخوف من الله

هذا الخلق النبيل " خلق الخوف من الله تعالي " إذا تمكن من قلب المؤمن وهبه الأمن والطمأنينة يوم يفرغ الناس ويخافون. وذلك وعد الله تبارك وتعالي: «**لا أجمع علي عبدي خوفين. و أمنين. فمن خافني في الدينا أمنته في الآخرة. ومن أمنني في الدينا خوفته في الآخرة**»(١). فالخوف من الله عز وجل يقف حائلا بين العبد وبين المعاصي. فإن عذاب الله شديد وأن الله لا يغفل ولا ينام. وهو سريع الحساب شديد العقاب. فيكف يده. وكذلك إذا مد بصره إلي المحرمات أو تطلع إلي العورات ذكر خوف خوفه من الله فيض بصره. وإذا وسوس له الشيطان معصية ما فإن الخوف من الله سرعان ما يرده عن متابعة الشيطان ويرد الشيطان عن إغوائه:{**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**} (٢).

جاء رجل إلي إبراهيم بن أدهم (٣) وقال له أني مسرف علي نفسي. فأعرض علي ما يكون زاخر لها. فقال له إبرهيم أن استطعت أن تفعل واحد من خمسة أشياء فإن المعصية لا تضرك قال الرجل هاتها يرحمك الله قال إبراهيم أن تعصي الله فلا تأكل من رزق الله و لا تسكن في بلاده وإذهب إلى مكان لا يراك فيه وإذا جاءك ملك الموت فقل له أخرني ساعة حتي أتوب وأعمل صالحا. وإذا جاءتك الزبانية يوم القيامة لتأخذك إلي النار فلا تذهب معهم فقال الرجل وكيف أستطيع ذلك ياإبراهيم؟ فقال له: ياهذا إذا كنت تأكل من رزق الله وتسكن في بلاده. ولا تغيب عنه طرفة عين و أقل من ذلك. لا تستطيع أن تهرب من الموت. ولا تستطيع أن تمتنع عن الزبانية فكيف تعصي الله؟ فبكي الرجل وتاب إلي الله تعالي. وذلك لأن إبراهيم ذكره بنعم الله ونقمه وخوفه وعذابه. تاب الرجل وأناب. وفي ظلال الغفلة عن الله وعدم الخوف منه. تحت هذا ستار الكثيف يفقد المرء دينه ويكون ألعوبة في يد الشيطان -: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولكن المؤمن حقا حين يسرق وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»

---

(١) راوه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة.

(٢) سورة الأعراف. الأية رقم (١، ٢).

(٣) هو أبو أسحاق بن إبراهيم بن منصور. كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا. فأثار إبوه في طلبه. فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ فنزل عن دابته وطلب العلم. وأقبل علي العبادة وصحب الفضيل بن عياض وسفيان الثوري. وكان يأكل من عمل يده... ومن أقواله " أطب مطعمك ولا حرج عليك ألا تقوم الليل وتصوم النهار " توفي بالشام بعد رحلة جهاد طويلة و مثيرة ويعده الصوفية من أكابرهم وسادتهم.

[1] ولكن المؤمن حقا هو الذي يخاف قيامه بين يدي ربه. فيقف خوفه سدا منيعا بينه وبين معاصي الله أن الشيطان هو الذي يزين المعصية ويحببها إلى مرتكبها. فإذا خف ميزان الإيمان ورجحت كفة الشهوة البهيمية انقلب الإنسان كالثور الخائج لا يذكر إذا امتلأ القلب بالخوف من الله وأن ربه سوف يسأله عن الفتيل والقطمير وعن الصغير والكبير وعن الذرة وما دونها [2]. كف عن الحرام وقنع بالحلال.

ولنذكر بعض مواقف الصحابة - رضي الله عنهم - وهم على قرب عهدهم برسول الله ﷺ وأنهم يعيشون معه ﷺ وكيف يخافون ربهم لتكون لنا فيهم وفيه ﷺ القدوة الحسنة هذه عائشة أم المؤمنين مع منزلتها العالية[3] وكيف كانت تخاف الله؟. دخل عليها رسول الله ﷺ فوجدها تبكي وسألها عن سبب بكائها فقالت: ذكرت النار فبكيت. ثم قالت لرسول الله ﷺ هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال لها المعصوم ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند تطاير الكتب حتى يقال هاؤم اقرءوا كتابيه. وحتى يعلم أين يقع كتابه أبيمينه أو في شماله. وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب وحسك[4] كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا [5]. وهذه المواقف جديرة بأن ينسى الإنسان فيها أهله وولده وأقرب المحبين إليه لأن لكل امرئ منهم شأن يغنيه -{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}[6]. فعند الميزان تشخص الأبصار وتنخلع القلوب حتى يعلم من توزن أعماله هل رجحت كفة حسناته أم كفة سيئاته؟ -{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ} [7].

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) أكد القرآن الكريم هذا المعني في قوله تعالى: يابني عن تلك إنها مثقال حبه من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله أن الله لطيف خبير * سورة لقمان الآية رقم (١٦) وقال أيضا * من يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره الآيتان رقم (٧، ٨).

(٣) فهي التي نزلت براءتها من السماء، وهي حبيبة حبيب الله، وهي مع رسول الله ﷺ إن الله في الجنة

(٤) الكلاليب: خطاطيف. والحسك: شوك وجمعه حسكه.

(٥) رواه أبو داود والحاكم. وقال صحيح على شرطهما لولا الإرسال فيه بين الحسن وعائشة.

(٦) سورة عبس. الآيات أرقام (٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧).

(٧) سورة القارعة.

والموقف الثاني عند تطاير الكتب التي سجلها الملكان كما عملها الإنسان فلكل إنسان كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. والمؤمن التقي هو الذي يأخذ كتابه بيمينه. ويا لها من سعادة غامرة. إنها الفوز بالجنة والنجاة من النار -{فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [1] وأما الفاجر الشقي الغوي فيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره وعندئذ يندم وليت ساعة ينفعه الندم فيقول:{يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}[2]. ويأتي النداء من الله تعالى للزبانية{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ} [3]. ويا لها من سلسلة ما أطولها وما أشدها لو سقطت منها حلقة على جبال الدنيا لدكتها. فكيف بالإنسان الضعيف؟

أعاذنا الله من ذلك.

والموقف الثالث: عند المرور على الصراط: وهو جسر ممدود على ظهر جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف فيه كلاليب معدة لتخطف من وكلت بخطفه من كل جبار عنيد مجترئ على حدود الله. ومملوء بالشوك ويالله من الشوك ليس كأشواك الدنيا. وذلك للعاصي...

أما المؤمن فيمر عليه كالبرق الخاطف ومعه نوره الذي يهديه في هذا الموقف. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله. فأتته امرأة فأعطاها ستين دينار علي أن يطأها. فلما راودها عن نفسها ارتعدت وبكت. فقال ما يبكيك؟ قالت لأن هذا عمل ما عملته وما حملني عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله فأنا أحري بذلك منك. اذهبي فلكي ما أعيتك والله ما أعصيه بعدها أبدا. فمات من ليلته فأصبح مكتوبا علي بابه أن الله قد غفر للكفل. فعجب الناس من ذلك**» [4].

---

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١٨٥).

(٢) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩).

(٣) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٣٠، ٣١، ٣٢) - ووصف رسول الله ﷺ هذه السلسلة بقوله: (لو وضعت حلقة منها على جبال الدنيا لأذابتها). وقال ابن عباس رضى الله عنه السلسلة سبعون ذراعا بذراع الملك لا بذراع البشر)... نسأل الله العفو والعافي.

(٤) الترغيب والترهيب. جزء رقم (٤). صفحة رقم (٢٥٨) - رواه الترمذى وقال حديث حسن.

ولقد كان رسول الله ﷺ أخشي الناس لله وأخوفهم منه مع ما غفر لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك شابت رأسه من خوفه من الله تعالى. قال أبوبكر: يا رسول الله.. أراك شبت. قال: شيبتني هود وأخواتها: (الواقعة) و(المراسلات) و(عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)... ولعلك تدرك أن هذه السور فيها ذكرا للنار وأهوال يوم القيامة. فهل يسمع مسلمو اليوم هذه السور كما سمعها رسول الله ﷺ أن هم قومنا من السماع جمال صوت القارئ وطريقة أدائه:

فهمهـــــــم إذا يتلـــــــى ::: جمـــال الصـــوت والـــنغم

فهل يعود المسلمون إلى ربهم إلى يخافونه ويخشون عذابه؟

أيا شابا لـرب العـرش عـاص ::: أتدرى ما جـزاء ذوى المعاصـي
سـعير للعصـاة لهـا زفـير ::: وغيظ يـوم يؤخـذ بالنواصـي
فإن تصبر على الـنيران فاعصـه ::: وإلا كن عن العصـيان قاصـى[1]
وفيم قد كسـبت مـن المعاصـى ::: رهقت النفس فاجهد فى الخلاص[2]

جزاء الخائفين:

تعالوا بنا نستعرض بعض آيات من القرآن الكريم التى تتحدث عن الخوف من الله وماذا أعد الله لهم؟ وبماذا وصفهم؟... يقول الله تعالى:{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ}[3]. فقد قصرت الآية خوف الله تعالى على العلماء وبالتالي فإن الجهلاء لا يخشونه عز وجل فمن الذى يرضى لنفسه أن يكون من الجاهلين؟!! ويقول تعالى:{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}[4] فقد جعلت الآية الجنة ورضا الله للذين يخافون الله. وقال تعالى{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[5] فالذى يخشى قيامه بين يدى ربه للسؤال. لـه عند ربه جنتان وليست جنة واحدة.

والمراد الخوف الذى يحجز الإنسان عن معاصي الله. قال تعالى:{وَأَمَّا مَنْ خَـافَ

(١) يعنى بعيدا عنها.
(٢) كتاب مكاشفة القلوب للإمام الغزالى. صفحة رقم (٣١).
(٣) سورة فاطر. الآية رقم (٢٨).
(٤) سور البينة. الآية رقم (٨).
(٥) سورة الرحمن. الآية رقم (٤٦).

مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[1]. وقال تعالى:{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}[2]... قالت السيدة عائشة: (سألت رسول الله ﷺ هل معنى هذه الآية الرجل يسرق ويزنى؟ قال: لا.. بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه [3].

وتعالوا فلنجل[4] فى رياض السنة النبوية ولنقطف من أزهارها بعض ما جاء فى الخوف من الله تعالى... ذكر رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فقال: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه دمعا. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله». [5] وقال ﷺ: «ما من عبد مؤمن تخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذبابة من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النـــار». [6] ولذلك كان بعض الصالحين إذا بكى من خشية الله أخذ دموعه فمسح بها وجهه وما استطاع من جسده لعل الله أن يحرم ذلك على النار.

قال ﷺ: «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت – سقطت – عنه خطايـــاه كما يتحات عن الشجرة ورقها» [7].

ومن الأشياء التى تعين على الخوف من الله تعالى زيارة المقابر. فهل يتعظ الناس بمن سبقوهم إلى المقابر؟ وأنهم لم يأخذوا من الدنيا شيئا معهم! وأنهم تركوا ما جمعوه من حلال أو من حرام وراءهم ظهريا! ثم سئلوا عنه بينما تركوه لمن بعدهم، وربما تنعم به من كان لـه عدوا!! نعم قد يرث الإنسان عدوه فيبخل عليه حتى بدعوة يدعو لـه بها - الزوجة أليست تتنعم بما ترثه من زوجها وربما تزوجت بعده آخر وربما كان بينه وبين الأول عداوة. البنت أليست ترث أباها وتتنعم بهذا الميراث مع زوجها وربما كان بينهم عداوة. الابن أليس يتنعم بما يرثه عن أبيه وتشاركه امرأته التى كانت تكره حماها مثلا - والد زوجها - بل القرآن الكريم أظهر لنا ذلك. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِـــنْ

(١) سورة النازعات. الآيتان رقم (٤٠، ٤١).
(٢) سورة المؤمنون. الآية رقم (٦٠).
(٣) أخرجه الترمذى. وحسنه الألبانى.
(٤) يعنى نمشى فى رحاب السنة.
(٥) رواه البخارى.
(٦) رواه ابن ماجة والبيهقي.
(٧) رواه البيهقى. وفيه: (إذا اقشعر جلد العبد).

أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [1] .

هل يعي هذا الذين يتكالبون على الدنيا ويتركونها لمن بعدهم لقمة سائغة بينما هم يشقون بحسابها؟ هل نذكر هذه المعاني ونحن نزور القبور فنعمل لهذا المكان مايجعله روضة من رياض الجنة بدلا من أن يكون حفرة من حفر النار؟... سأل تلميذ أستاذه النصيحة فقال له: احمل قبرك معك أينما كنت! ولم يفهم التلميذ مغزى هذه النصيحة فقال: وكيف أحمل قبري معي! فقال: أعنى أن تحمل فكرته لا أن تحمل تربته... فإذا ما حمل الإنسان فكرة القبر. وأنه بيت الوحشة وبيت الوحدة. وأن العمل الصالح هو الذي يجعله بيت الأنس وبيت التنعم بروضة من رياض الجنة كان ذلك أدعى إلى الاستعداد له.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه[2] قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكترشون (يضحكون). فقال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات – الموت – لشغلكم عما أرى». فأكثر ذكر هادم - قاطع - اللذات فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: «أنا بيت الغربة... أنا بيت الوحدة... أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحبا وأهلا. أما إنك كنت أحب من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليتك اليوم فسترى صنيعي بك. فيتسع له مد البصر ويفتح له باب إلى الجنة... وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا. أما إنك كنت أبغض من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليتك اليوم فسترى صنيعي بك. قال: فيلتأم – يضم بعضه إلى بعض – حتى تختلف أضلاعه. قال: فأخذ رسول الله ﷺ أصابعه فأدخل بعضها جوف بعض. قال: ويقيد له سبعون تنينا. لو أن واحد منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا فتنهشه وتخدشه حتى يفضى به الحساب» [3].

---

(١) سورة التغابن. الآية رقم (١٤).

(٢) روى الصحابى الجليل بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر رضى الله عنه. شهد الخندق وبيعة الرضوان وكثيرا من غزوات الرسول ﷺ. عرضه أبوه على النبى يوم أحد وهو ابن ثلاث عشرة سنة ليكون مع الجيش. لكن رسول الله ﷺ رده لصغر سنه. توفى سنة (٦٤) هـ وقيل سنة (٦٣).

(٣) الحديث بمعناه ذكرى المنذرى فى الترغيبي والترهيب. الجزء رقم (٤). الصفحة رقم (٣٦٢).

ومن هنا فإن أكيس الناس ما كان ذاكرا للموت مستعدا لما بعده[1]. فالموت هو الخطوة الأولى إلى عالم الخلود. وإنها لجنة أبدا أو النار أبدا... عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح. وعجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها. وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل.

روى أن علي بن أبي طالب كان عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية:{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً}[2]. فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ. كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان. فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دنس. ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا. وتجرى عليهم نضرة النعيم. فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب. فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين بأعلى فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل. فتبعث قيمها – خادمها – فيفتح له. فإذا رآه خر له. قال مسلمة: أراه قال: ساجدا. فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول: أنت حبي وأنا حبك.. وأنا الخالدة التي لا أموت.. وأنا الناعم فلا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط.. وأنا المقيمة التي لا أظعن. فيدخل الجنة فيرى بيتا من أسه – أساسه – إلى سقفه مائة ألف ذراع. بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق أحمر وأصفر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفي البيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون حشية. على كل حشية سبعون زوجة

(١) جاء هذا المعنى في الحديث الذي رواه الطبراني بإسناد حسن عن ابن عمر أن رسول الله سئل عن أكيس الناس وأحزم الناس فقال: (أكثرهم ذكرا للموت واستعدادا له...) صدق رسول الله ﷺ.

(٢) سورة مريم. الآيتان رقم (٨٥، ٨٦).

على كل زوجة سبعون حلة. يرى مخ ساقها من وراء الحلل. يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تطرد. أنهار من ماء غير آسن – قال: صافى لا كدر فيه – وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية. وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل. فسيتجلى الثمار فإن شاءا أكل قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء متكئا – ثم تلا:{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً}» فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض - وربما قال: أخضر - فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء ثم تطير فتذهب. فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم.{تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سوادا فى نور - أى لصار نورها أسود من شدة نور شعر الحوراء[1].

هل استعد كل واحد منا لهذا اليوم لينال هذا النعيم ولينجو من عذاب الجحيم؟ أم ما نزال الشهوات تأخذ بخناق الكثيرين منا فيقترفون من الآثام ما يعرضهم لغضب الواحد العلام؟!! ينبغى ألا يغتر أحد بمكان صالح يعيش فيه.. ولا بكثرة العبادة.. ولا بملازمة الصالحين.. ولا بكثرة العلم. فإن إبليس عليه اللعنة كان يعيش فى الجنة وكان يعبد الله مع الملائكة وكان له علم. ولكنه حينما عصى الله وأبى أن يسجد لآدم طرده الله من الجنة وحلت عليه اللعنة. وآدم عليه السلام كان كذلك لولا أنه هو وحواء تابا إليه وأنابا. وقال:{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[2].

(١) قال ابن كثير عند تفسير الآيتين رقمى (٨٥، ٨٦) من سورة مريم - فقد رويناه من كلام على أو هو أشبه بالصحة.

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٣).

أنواع الخوف من الله

ذكر الإمام الغزالي فى كتابه " إحياء علوم الدين " أن الخوف على ثلاثة أنواع: نوع قاصر. ونوع مفرط. ونوع معتدل...

(١) **أما الخوف القاصر**: فهو الخوف الوقتى عند سماع آية تتحدث عن النار أو مطالعة كتاب فيه ما يبعث الخوف. ولكن هذا الخوف يزول بزوال سببه. ويشبهه بالعصا الضعيفة التى تضرب بها دابة قوية فلا هى تسوقها إلى مقصد ولا يصلح لرياضتها... وهذا خوف العامة.

(٢) **وأما الخوف المفرط**: فهو الذي يجاوز الحد إلى اليأس والقنوط - ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. ولا يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون.

(٣) **أما الخوف المعتدل**: فهو يلازم الخائف ويذكره بقدرة الله وبطشه وجبروته ويكون ذلك حاجزا له عن معاصي الله. قال حنظله - صاحب رسول الله ﷺ -: «كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت بها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا. فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ من الخوف والرقة. فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظله. فاستقبلني أبو بكر الصديق فقال: كلا لم ينافق حنظله. قد خلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظله. فقال رسول الله ﷺ: كلا لم ينافق حنظله. فقلت يارسول الله: كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا. فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك. فقال رسول الله ﷺ يا حنظله.. لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحال لصافحتكم الملائكة فى الطريق وعلى فرشكم. ولكن يا حنظله ساعة وساعة» [١].

هذا هو الخوف المعتدل الذى لا يقلع المسلم من دنياه الحلال ولا تحوله إلى قانط يائس. ولعلنا نذكر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبى ﷺ: «يسألون عن عبادتهم. فلما أخبروا بها كأنهم قد تقالوها - أى عدوها قليلة - فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) حديث شريف رواه مسلم.

فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثاني: وأما أنا فأقوم الليل ولا أرقد. وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء!! وبلغ خبرهم رسول الله فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا.. أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له وإني أصوم وأفطر.. وأصلي وأرقد.. وأتزوج النساء.. هذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني». [1] ما أحوج أمتنا إلى أن تخاف الله فنكف عن معاصي الله وعندئذ تختفي كل المظاهر السلبية... فهؤلاء هم الذين يطففون الكيل ويبخسون الميزان أناس ألا يخافون الله!! -{أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[2] - وهؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وبالرشوة أو بالسرقة أو بالاختلاس أناس لا يخافون الله. فالله يقول:{وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[3].

وهؤلاء الذين ينتهكون أعراض المسلمين بالفعلة الشنعاء وبالكلمة الجارحة وبالنظرة الفاجرة أناس لا يخافون الله... وغير هؤلاء كثيرون. وغير أنني أقول إن الخوف من الله ليس خاصا بالعصاة والمذنبين فقط. بل إن الله أهل لأن يخاف وأن يتقى. وفي معنى الحديث القدسي عن رب العزة: «أفلو لم أخلق جنة أو نار أفلست أهلا لأن أتقى؟»... بلى يارب أنت أهل التقوى وأهل المغفرة. ولقد قال رسول الله ﷺ عن صهيب رضي الله عنه: «نعم العبد صهيب! لو لم يخف الله لم يعص». وهذا نهاية المدح فصهيب لو افترضنا جدلا أنه لا يخاف الله فلن يعصه أبدا!! فكيف وهو يخاف الله.

على كل منا أن يخاف الله تعالى. ويستعد للحساب. وليسأل نفسه بين الحين والحين كما كان عمر رضي الله عنه يسأل: «ماذا تقول لربك غدا يوم القيامة إذا وقفت للحساب بين يديه؟»... وعمر رضي الله عنه أحد المبشرين بالجنة. فكيف بنا؟؟

هناك أناس يجترئون على المال العام. فيسرقون ويختلسون. ولا عليهم إذا قدموا " الفواتير" لتسديد حساباتهم. ولم يعلموا أن الأخذ من المال العام أشد

(١) متفق عليه وهو من رواية أنس.
(٢) سورة المطففين. الآيتان رقم (٤، ٥).
(٣) سورة البقرة. الآية رقم (١٨٨).

وأنكي من الأخذ من المال الخاص. فصاحب المال الخاص قد تسترضيه أما أصحاب المال العام فما أكثر عددهم. فكل المنتفعين به هم أصحابه فكيف ترضى هؤلاء جميعا؟!!

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول – يعنى الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها – وهى مال عام للمسلمين – فعظمه وعظم أمره. ثم قال. لا ألفين – لا أجد – أحدكم على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. أو على رقبته رقاع – أقمشة – تخفق فتقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك» [1].

عن عمرين الخطاب قال: «لما كان يوم خيبر. اقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ يا ابن الخطاب اذهب فنادي فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. قال فخرجت فناديت: ألا لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». وملائكة الله تعالى وهم{لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[2] وفيهم الراكع والساجد إلى ان تقوم الساعة يخافون ربهم من فوقهم. قال تعالى عنهم:{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[3].

نسأل الله الخوف منه. والرجوع إليه وأن يتقبل منا صالح أعمالنا. وأن يغفر لنا خطايانا.

إنه نعم المولى ونعم النصير

* * * * *

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) سورة التحريم. الآية رقم (٦).
(٣) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٢٧، ٢٨).

من أخلاق المؤمنين:

الرجاء

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

obeikandl.com

الرجـــاء

خلق الرجاء ملازم لخلق الخوف من الله تعالى. ولا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر. والحق أنهما جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود. وبلطتان يقطع بهما فى طريق الآخرة كل عقبة كَؤود... فالخوف هو الذى يردع من ارتكاب المعاصي. والرجاء هو الحب الذى يدفع إلى فعل الطاعات. والرجاء فى عفو الله ورحمته سمة من سمات المؤمنين. ذلك أن المؤمن لا يكمل الإيمان فى قلبه إلا إذا كان على يقين من لقاء الله عز وجل. وهو سبحانه وتعالى موصوف بالعفو والمغفرة وسعة الرحمة. ولو شك إنسان فى ذلك لحظة واحدة كان - والعياذ بالله – كافرا؛ ولذلك حذر القرآن الكريم من اليأس والقنوط لأن ذلك ينافى الرجاء والطمع فى رحمة الله. ولقد قال نبى الله إبراهيم عليه السلام:{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}[1]. ولما جاءته الملائكة ليبشروه عليه السلام بغلام عليم. وكانت سنه قد تقدمت وأصبح بحيث لا يستطيع الإنجاب من امرأته التى أصبحت عجوزا كما وصفت نفسها فقالت:{أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـــذَا بَعْلِـــي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}[2] ولما كانت قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء قالت الملائكة للسيدة سارة:{أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}[3] وقالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام{بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ}[4]. وأسرع إبراهيم فنفى عن نفسه القنوط فقال:{وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ}[5].

الرجاء في القرآن والسنة

تعالوا بنا نستعرض الآيات التي تتحدث عن خلق الرجاء. ونجد من ذلك قوله تعالى:{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الـــرَّحِيمُ}[6]. وهذه الآية الشريفة - كما يقول العلماء -

---

(١) سورة الشعراء. الآية رقم (٨٢).
(٢) سورة هود. الآية رقم (٧٢).
(٣) سورة هود. الآية رقم (٧٣).
(٤) سورة الحجر. الآية رقم (٥٥) - ومعنى القانطين أى الآيسين من الخير أو الولد.
(٥) سورة الحجر. الآية رقم (٥٦).
(٦) سور الزمر. الآية رقم (٥٣)... رأيت فضيلة الوالد - رحمه الله - بعد وفاته فسألته: ماذا فعل الله بك؟ فتلى على هذه الآية: (إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)... نسأل الله الرحمة والمغفرة... آمين.

أرجى آية في كتاب الله تعالى.

ويذكر ابن كثير أن البخاري روى عن ابن عباس رضي الله عنه أن أناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا القتل. وزنوا فأكثروا. فأتوا محمد ﷺ فقالوا: «إن الذي تقول وتدعو له لحسن. لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة. فنزل قوله تعالى:{وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}[1]. ونزل أيضا قوله تعالى:{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}... فأنت تجد أن هذه الآيات تفتح باب التوبة واسعا أمام كل من اقترف سيئة. فالله: «يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها» [2].

ومن الآيات التي تحث على الرجاء قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}[3]. وورد أن رسول الله ﷺ قال: «لا أرضى وواحد من أمتي في النار». وصدق القائل حيث يقول:

ألم يعطك الرحمن في سورة الضحى ::: فحاشاك أن ترضى وفينا معذب[4]

وفي تفسير قوله تعالى:{يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ} [5]أن الله قال لرسوله ﷺ: «إني جاعل جاعل حساب أمتك إليك. قال: لا يارب.. أنت أرحم بهم مني. فقال: إذن لا نخزيك فيهم»... وغير ذلك كثير.

ومن السنة النبوية الشريفة ما ورد في الصحيحين ما معناه أن رجلا قتل تسعا وتسعين نفساً. ثم ندم وسأل عن أعبد أهل الأرض فدلوه على عابد. فقال له: هل لي من

---

(١) سورة الفرقان. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠).
(٢) حديث شريف رواه مسلم والنسائي عن أبي موسى رضي الله عنه.
(٣) سورة الضحى. الآية رقم (٥).
(٤) وقال آخر:
لقد قرأنا في الضحى ولسوف ::: تعطى فسر قلوبنا هذا العطاء
وحاشى يا رسول الله ترضى ::: وفينا من يعذب أو يساء
(٥) سورة التحريم. الآية رقم (٨).

توبة؟ فقال لـه: لا. فقتله وأكمل المائة. ثم قال: دلوني على أعلم أهل الأرض. فدلوه على عالم فسأله: هل لي من توبة؟ فقال لـه: ومن يحول بينك وبين التوبة! ولكن اذهب إلى قرية أخرى واعبد الله مع أهلها، فذهب وفى أثناء سيره أدركته الوفاة. فنزلت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاختصموا فيه. فأرسل الله ملكا وحكم بينهم أن قيسوا المسافة من مكان موته إلى القرية التي هاجر إليها. وإلى التي يهاجر إليها. فإذا وجد إلى أي الفريقين أقرب أخذته ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ولما قاسوا وجد أنه أقرب إلى القرية التي خرج مهاجرا إليها. فأخذته ملائكة الرحمة... فهذا رجل قد قتل مائة نفس. ولكنه تاب إلى الله. فقبل الله توبته وتولته ملائكة الرحمة[1]... فأى رجاء في رحمة الله بعد هذا. والله رب غفور بنا.

روى الإمام أحمد بسنده ما معناه: أن شيخاً كبيراً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يتكئ على عصاه. فقال: يارسول الله.. إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي. وقال ﷺ ألست تشهد ألا إله إلا الله؟ قال: بلى وأشهد أنك رسول الله. فقال ﷺ: قد غفرت لك غدراتك وفجراتك[2].

وفى حديث قدسي: «**إن العبد إذا أذنب ذنبا فاستغفر الله. يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب. أشهدكم أني قد غفرت له**» [3].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله... إنى لا أصوم إلا الشهر - أي شهر رمضان - ولا أزيد عليه، ولا أصلى إلا لخمس ولا أزيد عليها. وليس لله في مالي صدقة - يعنى أنه فقير. ولا حج ولا تطوع. فأين أنا إذا أذنبت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال نعم... معى إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل والحسد. ولسانك من اثنتين: الغيبة والكذب. وعينك من اثنتين: النظر إلى ماحرم الله. وأن تزدرى بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) وفى رواية البزار والطبرانى أن رسول الله قال لـه بعد أن أقر الرجل بالشهادتين: (تفعل الخيرات. وتترك السيئات. فيجعلهن الله لك خيرات كلهن). فقال الرجل: (وغدراتى وفجراتى). فقال النبى: (نعم). فقال الرجل: (الله أكبر. فما زال يكبر حتى توارى).

(٣) حديث شريف متفق عليه ذكره النووى فى رياض الصالحين.

الرجاء المقبول

وليس معنى الدعوة إلى رجاء الله لرحمته أن نترك العمل وأن ننغمس في الشهوات... لا. فهذا تجرؤ على الله وتعطيل لشعائر الله وشرائعه. فلا بد من العمل ولابد من التذلل لله والتقيد بأوامره. ولكن إذا زلت القدم وامتحن المؤمن في ضعفه. فضعف أمام الدنيا وأمام النفس الأمارة بالسوء ووسوسة الشيطان الرجيم. فليس له أن ييأس من رحمة الله. ولكن عليه أن يتذكر أن عليه أن يعود إلى جناب الله وإلى طاعته تائبا نادما. وعندئذ يجد رحمة الله في انتظاره - إن رحمة الله قريب من المحسنين - فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وأن أناسا ألهتهم أماني المغفرة. وقالوا نحسن الظن بالله... وكذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل.

ويضرب الإمام الغزالي مثلا يفرق بين الرجاء وبين الحق في الاعتماد على رحمة الله تعالى بدون عمل. فيقول: (ينبغي أن يقاس رجاء العبد بالمغفرة برجاء صاحب الزرع. فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء في أوقاته. ثم نقى الأرض من الشوك والحشائش وكل مايمنع نبات البذور ويفسده. ثم جلس ينتظر من الله تعالى دفع الصواعق والآفات إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته... فهذا الذي يسمى انتظاره رجاء. وأما من بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء. ولم يشتغل بتعهد البذور أصلا. ثم انتظر إلى الحصاد.. سمى انتظاره حمقا وغرورا) فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقال أحد الصالحين: من أعظم الاغترار عندي. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة. وتوقع القرب من الله بغير طاعة. وانتظار زرع الجنة ببذر النار. وطلب دار المطيعين بالمعاصي. وانتظار الجزاء بغير عمل. وما أكثر الحمقى في دنيا البشر. يحكم أحدهم على شهوته وتحاول أن تذكره بالحلال والحرام وبالجنة والنار فيقول لك - إن الله غفور رحيم. وربما يتحجج أحدهم فيقول: (خذني على جناحك)! ولهذا وأمثاله نقول: نعم إن الله غفور رحيم وهو أيضا شديد العقاب. يقول الله تبارك تعالى:{نَبِّئْ

عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ} [1]. ويقول عز من قائل:{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [2]. إذن فالدائرة التي يدور فيها الرجاء ذنب يرجو العبد غفرانه. وعيب يرجو إصلاحه. وعمل صالح يرجو قبوله. وتقرب إلى الله تعالى يرجو أن يحظى به. فهذا هو الرجاء الذي يتسق مع قول الله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}. فقد وصفت الآية الراجين بأنهم مؤمنون... مهاجرون... مجاهدون. فلا يوجد رجاء بدون عمل. وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة للراجين بدون عمل. ومن هؤلاء صاحب الجنتين الذي ورد ذكره في سورة الكهف - قال تعالى:{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً} - ماذا قال الرجل الغني لصاحبه الذي قال له:{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً}. ذكره بأن الله هو الذي خلقه من تراب وهو الذي رزقه.. فعليه أن يعبده. لكنه قال:{أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً}. وقد يكون ذلك صحيحاً. فهو أكثر مالاً وهو أعز نفرا. لكن غير الصحيح أن يقول له:{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً} [3]. هذا هو الحمق بعينه. كيف يكفر بالله - فيقول:{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} - ثم يدعي بعد ذلك أنه إذا رجع إلى ربه فسوف يجد ما هو أفضل من جنته... هذا هو الرجاء بدون عمل. وهو مردود على صاحبه.

وهناك مثالاً ثانياً... وهو لليهود الذين يحرفون الكلم ويتعاملون بالربا ويستحلون الرشاوى. ثم يقولون:{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}. ويقولون{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}[4]. والقرآن رد عليهم بقوله:{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} ويقول الله تعالى:{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ}[5]. ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: أن اليهود كانوا يستحلون الرشا. فكلما ولوا قاضياً أخذوا

(١) سورة الحجر. الآيتان رقم (٤٩، ٥٠).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٧).
(٣) كافة تفاصيل القصة مذكورة بسورة الكهف بداية من الآية رقم (٣٢) وحتى الآية رقم(٤٤).
(٤) سورة البقرة. الآية رقم (٨٠).
(٥) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٩).

عليه العهد ألا يأخذ رشوة. فكان إذا سنحت له الفرصة أخذها وقال: سيغفر الله لي. وإذا عينوا قاضيا آخر أخذوا عليه نفس العهد. فأخذ الرشوة وقال: سيغفر الله لي.

وهناك مثال ثالث تشير إليه الآية الكريمة: {أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً}... [1] والآية تتحدث عن العاص بن وائل والد سيدنا عمرو بن العاص. فقد كان عليه دين لخباب بن الأرت. ولما ذهب خباب ليتقاضى دينه قال له العاص: في الآخرة سوف يؤتيني الله مالاً كثيراً وأولاداً كثيرين وسوف أقضيك دينك. فنزل قوله تعالى: «كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا» [2].

وخلاصة ما أريد أن أقرره أن العمل والرجاء مقترنان. وأن الرجاء وحده لا يغني عن العمل. قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» [3]. فقد أثبت لهم العمل الصالح والبعد عن كل مظاهر الشرك. وهكذا فالرجاء والعمل مطلوبان من المؤمن...

قال أحد محبي الإمام الشافعي: دخلت على الشافعي أعوده في مرضه الذي مات فيه. فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً. ولإخواني مفارقاً. ولكأس المنية شارباً. ولا أدري إلى الجنة تسير روحي فأهنيها. أم إلى النار فأعزيها. ثم قال:

ولما قسي قلبي وضاقت مذاهبي ::: جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ::: بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وهنا قد يثور سؤال مؤداه: هل العبادة مع الخوف أفضل أم العبادة مع الرجاء؟ والجواب: أن العمل مع رجاء قبوله أفضل من العمل مع الخوف من رده. فالحب سبب الرجاء وأحب الخلق إلى الله أكثر له حبا. ونضرب لذلك مثلا فنقول: هب أن لك خادمين أحدهما يقوم بخدمتك بدافع الحب والآخر يقوم بنفس الخدمة ولكن لخوفه من أن تعاقبه. فلاشك أن الخادم الأول أفضل لأن الذي يدفعه لخدمتك حبه لك. وأما الثاني الذي

(١) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٧، ٧٨).
(٢) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٩، ٨٠).
(٣) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

يخدم بدافع الخوف من العقاب فإنه قد يقصر إذا أمن عقابك.

ويروى في ذلك أن رجلين كانا متساويين في العبادة فلما دخلا الجنة رفع أحدهما أعلى من الآخر. فقال الذي درجته أقل يارب: ما كان هذا بأكثر عبادة منى فلماذا رفع أعلى منى. فيقول الله له: هذا كان فى الدنيا يسألني الدرجات العالية وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل واحد ماسأله. وقد قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الدرجات العلا فإنما تسألون كريما**». وقال ﷺ أيضا: «**إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء**». ومع ذلك فينبغي للمؤمن أن ينظر في أمر نفسه. فإذا كان الغالب على نفسه اليأس والقنوط. فالرجاء أفضل. فإذا كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله والاعتزاز بما يفعل فالخوف أفضل... فهما متلازمان. ولتفضيل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا نقول: هل الخبز للإنسان أفضل أم الماء؟ ولا تستطيع أن تفضل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا. فالخبز أفضل للجائع. والماء أفضل للظمآن. فهذا المثل يقرب لك معنى الخوف والرجاء غير أننا نقول: في حالة واحدة يحسن أن نفضل الرجاء على الخوف. وتلك هي حال الاحتضار حينما يحس الإنسان بدنو أجله عليه أن يحسن الظن بالله. ومما رواه مسلم عن جابر قال رسول الله ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى**» [1]... وحضرت الوفاة أحد الصالحين فسأله أحد عواده: كيف ظنك بالله يافلان. فقال: ظني بالله والله حسن. فقال له: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «**أنا عند حسن ظن عبدي بى.. إن ظن خيرا فله. وإن ظن شرا فله**»[2]. ولذلك لما حضرت الوفاة الإمام أحمد قال لابنه: (أذكر لي أحاديث الرجاء).

فيما عدا حال الاحتضار - وقت خروج الروح - فالعبد عليه أن يكون بين الخوف والرجاء. قال الإمام على - كرم الله وجهه: «خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك. وارج الله رجاء ترى لو أنك أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من جنته**».

---

(١) الحديث رواه مسلم وأبو داود.

(٢) القصة رواها ابن حبان فى صحيحه والبيهقى وأحمد فى مسنده. والمحتضر هو أبو يزيد بن الأسود. والذى سأله هو واثلة بن الأسقع.

ومن حديث أنس أن أعرابيا قال: «يارسول الله.. من يلي حساب الخلق؟ فقال النبي ﷺ الله تبارك وتعالى. فقال الأعرابي: هو بنفسه؟ قال ﷺ: نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح. فقال النبي ﷺ: صدق الأعرابي. ألا لا كريم أكرم من الله. ثم قال ﷺ: فقه الأعرابي».. هذا هو حسن الظن بالله تعالى. أما سوء الظن به فسوء أدب مع الله تعالى. فقد عير الله قوما فقال:{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ}[1]. وقال تعالى:{وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً}[2]. إن الرجاء وحسن الظن بالله تعالى ينزل على قلوب البائسين برداً وسلاما. فيطفئ ما في قلوبهم من قنوط. إنه نسمة ندية ترطب جفاف حياتهم. وما أصدق من قال:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ::: ما أضيق العيش لولا قسمة الأمل

وقال آخر:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ::: نفس المحب تحسرا وتمزقا
لولا الرجاء يحدو المطى لما سرت ::: بحمولها لديارهم ترجو اللقا[3]

واستمع إلى هذه المناجاة من أحد الصالحين حيث يقول: (إلهي! أحلى العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك). [4]

وإني لأرجو الله حتى كأنني ::: أرى بجميل الظن ما الله صانع

(١) سورة فصلت. الآية رقم (٢٣).
(٢) سورة الفتح. الآية رقم (١٢).
(٣) ليس الرجاء فقط في مغفرة الله للذنوب. بل المسلم يرجو اليسر بعد العسر. والرزق بعد الفقر. والسعة بعد الضيق. والخير بعد الشر... وهكذا. قال الشاعر:
هي الأيام والغير وأمر الله ينتظر ::: آتيأس أن ترى فرجا فأين الله والقدر؟
(٤) موسوعة أخلاق القرآن المجلد الأول. الصفحة رقم (٢٢٦).

ثمرات الرجاء

وأركز بعض ثمار الرجاء فيما يأتي:

١ - إن الرجاء يجعل قلب الراجي موصولاً بربه. بعكس الساخطين البائسين فإنهم انصرفوا عن جنات الله. وما أسهل أن يقعوا فريسة في مخالب الشيطان حينما يطرح عليهم شباكه. إن الأمل في طلوع الفجر يهون مشاق المسير في ظلام الليل.

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ::: يكون وراءه فرج قريب

٢ - إن الرجاء في قبول الله العبادة من العابد تجعله يقبل عليها بحب. وهل شرع الدعاء إلا ليغرس بذرة الأمل في قلب نزلت به شدة. قال تعالى:{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}... فانظر كيف وصف الدعاء بأنه العبادة؟ بل ورد عن النبي ﷺ: «أنه مخ العبادة. ومن لم يسأل الله يغضب عليه. و إذا أكرم الله عبده بقبول دعائه ازداد في الله حبا. وإليه قربا. وعليه اعتمادا»...

أتاك على قنوط منه لطف ::: يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات إذا تناهت ::: فموصول بها الفرج القريب

٣ - أن الرجاء يصل بصاحبه إلى حب الله تبارك وتعالى. فليس من المعقول أن يرجو العبد من لايحبه... فكلما كثر رجاء العبد بربه ازداد حبه لله تعالى ورضي عنه وشكر له[1].

أسأل الله أن يمتعنا بنعمة الرجاء فيه والإنابة إليه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

* * * * *

(١) من ثمرات الرجاء أيضا مغفرة الذنوب... حكى أن القاضي يحيى ابن أكثم مات. فراه أحد أصحابه وقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لي ووبخني وقال لي: يا يحيى.. قد خلطت علي في الدنيا. فقلت: يا رب... اتكلت على حديث: (إن الله يستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام أن يعذبهما). فقال لأي: عفوت عنك - الرسالة القشيرية. الصفحة رقم (٢١). وروى مالك بن دينار في المنام فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: قدمت على ربي بذنوب كثيرة محاها عني بحسن ظني به تعالى.
ومن ثمرات الرجاء أيضا أن الله يكون مع الراجي. قال تعالى في الحديث القدسي: (أنا مع ظن عبدي بي. فليظن عبدي بي ماشاء). فإذا ظن العبد بربه خيرا لقي خيرا. وغذا ظن به شر ناله سوءا.
وترك الرجاء مع العمل سوء أدب من العبد مع ربه. جاء في معنى الحديث الشريف: (إن أعظم الذنوب عند الله أن يفيض الحاج من عرفة وهو يظن أن الله لن يغفر له).

من أخلاق المؤمنين:

الحلـــم

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِـــي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِـــن ذَلِـــكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

الحلـــم

الحلم هو الأناة والتعقل وضبط النفس. والصبر عند هيجان الغضب. وهو احتمال الأذى ممن هو دونك مع القدرة عليه. ولا يسمى المرء حليما إلا إذا كان حلمه طبعا لا تكلفا، والخطوة الأولى للحلم هو التحلم كما قال النبي ﷺ: «إنما العلم بالتعلم. والحلـــم بالتحلم». والحلم صفة من صفات الله. ومن أسمائه أنه الحليم... ومن مظاهر حلم الله على عباده أنه يراهم حيث نهاهم ويفتقدهم حيث أمرهم. ومع ذلك لا يعجل لهم العقوبة. وهم يتقلبون في نعمه حيث سخر لهم هذا الكون كله من مجرى الأفلاك في السماء إلى مسبح الأسماك في الأرض. ومع ذلك يعبدون غيره ويشكرون سواه!

انظر إلى الحبة التي تلقى في باطن الأرض. من الذي يوفر لها الدفء والحرارة؟ ومن الذي يمدها بأسباب النماء والبقاء؟ هل يستطيع إنسان أن يزعم غيره؟ قال عز من قائل:{أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَـوْ نَشَـاءُ لَجَعَلْنَـاهُ حُطَاماً}(١). وانظر إلى شربة الماء واسأل نفسك من الذي أنزلها لك من السماء؟ وتأمل قول الله تعالى:{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنـزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَـاهُ أُجَاجـاً} (٢)... فالطعام أخرجه الله من الأرض والماء أنزله من السحاب. ومع ذلك نعبد غيره ونشكر سواه. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الحلم.. وضبط النفس.. وكظم الغيظ. وكلها معاً متقاربة تدعو إلى الأناة وعدم التعجل. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمـاً بِجَهَالَـةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}(٣). فهذا أسلوب كريم وتوجيه حكيم يدعو المؤمنين إلى أن يملكوا زمام أنفسهم عند سماع ما يهيج غضبهم ويثير حفيظتهم. وعليهم أن يتبينوا وإلا فإنهم إذا تسرعوا أصبحوا نادمين على ما فرط منهم... قد يسمع الإنسان كلمة

---

(١) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٣، ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠) - ومن بلاغة القرآن الكريم في هذه الآيات: أن الله ذكر لام التوكيد في مسألة الزرع في قوله: (لو نشاء لجعلناه) ولم يذكرها حين تحدث عن نزول الماء من السحاب (لو نشاء جعلناه)... والحكمة أن الإنسان ربما سولت له نفسه أن يزعم أنه هو الذي أنبت الزرع لأنه حارث الأرض وواضع البذور وساقيها. فجاء التأكيد باللام حتى لا يجرؤ أحد على هذا. وفي نزول الماء لم تذكر اللام لأنه من المستحيل أن يدعي أحد أنه قادر على تجميع السحاب أمره بنزول أمطار حيث شاء وأراد. وبالتالي لم تكن هناك للتأكيد. والله أعلى وأعلم.

(٣) سورة الحجرات. الآية رقم (٦).

طائشة من إنسان أخرق أو يقابل بتصرف أحمق. فيغضب ويثور وينفعل ويقابل السيئة بالسيئة. لكن الحليم هو الذي ينجو من ذلك فلا يصبح ألعوبة في يد الشيطان. حيث يلقى في وجهه جمرة الغضب ويضله عن التفكير السليم. والتصرف الكريم الذي يليق بالمؤمن الذي رضي بالله رباً. وبالإسلام دينا. وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

روى أبا هريرة أن النبى ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة[1] وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [2]... ولقد كان رسول الله ﷺ القدوة المثلى في الحلم...: «كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم يوم حنين فجاءه أعرابي. فقال يا نبي الله اعدل – أي اقسم بالعدل في توزيع الغنائم – فقال له النبي ﷺ: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟! فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل. وغضب عمر لهذه الإهانة التي صدرت من هذا الأعرابي لرسول الله ﷺ الذي لم يتأدب هذا الأعرابي في مخاطبته. وقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه فإنه منافق. فقال النبي الحليم الكريم: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» [3]...

هذا الأعرابي يوجه هذا الاتهام الباطل لسيد الخلق ﷺ أما الناس وعلى رءوس الأشهاد. ومع ذلك لم يقل له الرسول العظيم شيئا وإنما يقول عن نفسه: «فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل». وهو ﷺ لا يقابل السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح... ﷺ وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله. يا من أدبك ربك فأحسن تأديبك. لقد كنت قرآنا يمشي على رجلين. وكان خلقك القرآن كما وصفتك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها. أليس ما فعلته مع هذا الأعرابي تفسيرا عمليا راشدا لقوله تعالى:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[4]. وكان هذا من الجاهلين للأدب الذي أدبنا الله به في حضرة رسول الله ﷺ. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ} [5]. وهذا لم يرفع صوته قط. وإنما رفع صوته واتهم الرسول ﷺ بعدم العدل.

---

(١) بضم الصاد المشددة وفتح الراء. وهو المصارع الذى يصرع الرجال ولا يصرعونه.
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) الحديث بمعناه فى الصحيحين من رواية أنس بن مالك.
(٤) سورة الأعراف. الآية رقم (١٩٩).
(٥) سورة الحجرات. الآية رقم (٢).

فقد أساء الأدب وتعدى طوره وجاوز حده الذي كان يجب عليه أن يقف عنده ولا يتخطاه.

يروى عن سليمان عليه السلام أنه قال: «**القاهر لنفسه أشد من أن يفتح مدينة لوحده**». والمعنى أن الذي يستطيع أن يسيطر على نفسه عند الغضب. فيكفها عن آثاره يكون أقوى من إنسان استطاع أن يفتح مدينة واحدة. وهذا حق منه. ذلك لأن كثيرين ممن يفتحون المدن ويحصلون على الأوسمة والنياشين لبطولتهم وقوتهم قد لا يستطيعون أن يسيطروا على شهواتهم أمام إغراء امرأة تسحرهم بجمالها. أو أمام قدح من الخمر يذهب بلبهم... وبذلك يصبحون أسرى شهواتهم وعبيداً لنزواتهم. إن الإنسان الحليم الذي لا يعجل وإنما يتأنى. ولا يقابل السيئة بالسيئة. ولكنه يغفر ويصفح. هذا الإنسان يكون محبوباً من الله ومحبوبا من الناس. قال تعالى:{**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**}[1]... انظر كيف رتب القرآن على مقابلة السيئة بالحسنة. وكيف أن من يصفح عنه يكون صديقا حميما لمن أساء إليه. ثم يقول إن هذه منزلة عالية لا يصل إليها إلا الصابرون أصحاب الحظ العظيم. ويقول الرسول ﷺ: «**ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله. وحلم يكف به السفيه. وخلق حسن يعيش به في الناس**».

وقد حدد النبي ﷺ ثلاث صفات من لم يتصف بواحدة منهن فلا قيمة لما عمله:

الأولى: تقوى الله التي تقف حاجزا بين العبد وبين معاصي الله. فالتقوى هي أن يجعل المتقى بينه وبين معاصي الله وقاية تمنعه من أن ينحدر إلى مستنقع الرذيلة لأنه على ذكر لله:{**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**}[2].

الثانية: حلم يكف به السفيه. وما أكثر السفهاء الذين يقابلهم الإنسان في حياته. فلو أنه قابلهم بسفه يرد به سفاهتهم لتكدرت حياته وأظلمت معيشته وتدخل الشيطان بينه وبينهم. ولكنه إذا قابل ذلك بالحلم الذي يمنع هذا السفه لكان ذلك راحة لقلبه. حيث يعلم

(١) سورة فصلت. الآيتان رقم (٣٤، ٣٥).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٠٢).

أن الله يقيض لـه ملكا يرد عليه. وهل يستطيع إنسان أن يرد كما يرد الملك؟... يروى أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان جالساً مع رسول الله وكان في المجلس رجل يسيء إلى أبى بكر بالكلام. وسكت أبو بكر مرة ومرة. وفى الثالثة رد أبوبكر على الرجل. فقام الرسول ﷺ من المجلس. وفطن الصديق إلى أن الرسول ﷺ قد أغضبه ذلك. فقال: يا رسول الله... أغضبت علي لأني رددت على الرجل. فقال النبي ﷺ مامعناه: قد كان هناك ملك يرد عنك وأنت ساكت. فلما انتصفت لنفسك ذهب الملك وجاء الشيطان. وما كنت لأجلس فى مكان به شيطان.

الثالثة: خلق يعيش به بين الناس. فصاحب الخلق الحسن محبوب من الله والناس. يقول النبي ﷺ: **«ألا أدلكم على أقربكم منى مجلسا يوم القيامة؟ أحسنكم أخلاقا. الموطئون أكنافا. الذين يألفون ويؤلفون»**[1].

وأولى الناس بحلمك أيها المؤمن إنما هم أهل قرابتك. فكن حليما معهم وتجاوز عن سيئاتهم وزين نفسك بخلق الحلم وتألفهم به. جاء رجل إلى النبي وقال: **«يا رسول الله.. إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني. وأحسن إليهم ويسيئون إلي. وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال ﷺ: إن كنت كما تقول فكأنما تسفهم المل – أي كأنما تطعمهم الرماد الحار – ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»** [2]. وقال رجل من صحابة رسول الله ﷺ: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها. فأيما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة. فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ: أنى قد غفرت لـه.

تذكر أخي المسلم أن الله تبارك وتعالى قال فى أوصاف عباد الرحمن: **{الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}**[3]... فإذا غضبت وقدرت على إنفاذ غضبك فدعه لله. فإذا ذكرت الله عند غضبك على الناس ذكرك الله عند غضبه عليك - كما جاء ذلك فى الحديث القدسي: **«عبدي إذا غضبت على الناس فاذكرني أذكرك عند غضبى»**.

والجزاء من جنس العمل. ولكن شتان بين ذكر العبد وذكر الرب. إن ذكر الله يكون

---

(١) رواه الطبرانى والبزار من حديث أبى هريرة.
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة الفرقان. الآية رقم (٦٣).

بالعفو والصفح. والنجاة من نار وقودها الناس والحجارة. ودخول جنة عرضها السموات والأرض أكلها دائم وظلها ممدود.

تروى السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنه قالت: «يا رسول الله... هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال ﷺ: لقد لقيت من قومي. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال. فلم يُجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب – اسم مكان – فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك. وما ردوا به عليك. وأن الله قد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيه. فنادانى ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد.. إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملك الجبال. وقد بعثني ربى إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» (١).

هذا بعض ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه. وكيف مكنه الله تعالى أن ينتصف لنفسه بأن جعل ملك الجبال يأتمر بأمره. ولو لم يكن النبي ﷺ حليما لانتصر لنفسه. وكانت الجبال وما أثقلها وما أضخمها على رءوسهم بحيث لا تبقى ولا تذر منهم أحدا. لكنه الحليم الذي رجا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا. وقد حقق الله رجاء نبيه وهدى قومه. وحاربوا معه ﷺ. وأخرج الله من أصلابهم العباد والزهاد. وكل ذلك ببركة حلم رسول الله ﷺ. ولما نزل قوله:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}. قال النبي ﷺ: يا جبريل. ما هذا؟ فقال جبريل: لا أدرى حتى أسأل الله. ثم عاد جبريل وقال: يا محمد. إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك. وتعطى من حرمك. وتعفو عمن أساء إليك.

يحكى أن أحد الصالحين دعا خادمه ليصب عليه الماء ليتوضأ. فوقع الإبريق من الخادم فى الطست فأصاب الماء الرجل. فلما ظهرت عليه أمارات الغضب وخاف الخادم وقال: يا سيدي. يقول الله تعالى:{وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}. فقال كظمت غيظي. فقال الخادم:{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}. فقال: عفوت عنك. فقال الخادم:{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

(١) القصة رواها البخارى فى صحيحه - كتاب بدء الخلق - ومسلم باب ما لقى النبى من أذى المشركين.

فقال: اذهب وأنت حر لوجه الله تعالى[1]... والسيدة عائشة رضي الله عنها قد اغتاظت على خادم لها ثم رجعت إلى نفسها وقالت: (لله در التقوى ما تركت لدى غيظ شفاء) تعنى أن التقوى تجعل المتقى لا يشفى غيظه. وإنما يترك ذلك لله تعالى.

ويوم القيامة إذا جمع الله الأولين والآخرين. نادي مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وينطلقون سراعا إلى الجنة. فيقولون لهم نحن أهل الفضل: فتقول الملائكة: ما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا - ظلمنا غيرنا - صبرنا... وإذا أسيء إلينا عفونا.. وإذا جهل علينا حلمنا. فيقال لهم:{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[2].

من سير الحلماء

وما أحلى أن نذكر بعضا من سيرة الحلماء لتكون لهم بهم أسوة... فمن ذلك أن رجلاً ضرب رجلاً حليماً على رجله حتى أوجعه. فلم يغضب عليه. فقيل له في ذلك. فقال: أقمته مقام حجر تعثرت فيه، فذبحت الغضب... قال رجل لابن هبيرة كلاما بذيئا فأعرض عنه. فقال له الرجل: إياك أعنى. فقال ابن هبيرة: وعنك أعرض... وشتم رجل الشعبي. فقال الشعبي: إن كنت أنا كما قلت فليغفر الله لي. وإن لم أكن كما قلت فليغفر الله لك - فهل رأيت حلماً كهذا الحلم. إنه يدعو لمن يشتمه لو كان الرجل كاذباً ويستغفر لنفسه إذا كان الرجل صادقاً...

وقال رجل لضرار بن القعقاع: والله لو قلت كلمة واحدة لأسمعتك عشرا. فقال ضرار: ولكنك لو قلت عشرا ما أسمعتك كلمة واحدة... وجعل رجل يسب الأحنف بن قيس وهو يماشيه فى الطريق. فلما اقتربا من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقى معك شيء فقله هاهنا فإني أخاف إن سمعك فتيان الحي أن يؤذوك... وقيل لأحد الصالحين إن فلانا وقع فيك. فقال: لأغيظن من أمره - يعنى الشيطان - يغفر الله لي وله... وسب رجل ابن عباس رضي الله عنه. وكان جعفر ابن أبى طالب - وهو ابن عمه - موجودا فقال: يا جعفر. هل للرجل من حاجة فنقضيها له؟ فنكس الرجل رأسه وانصرف.

---

(١) ما قاله الخادم هو الآية رقم (١٣٤) من سورة آل عمران.

(٢) رواه الأصبهانى من حديث عمر بن شعيب ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. وأشار إليه بصفة الضعيف.

الحلم المذموم

وأحب أن أنبه هنا إلى أن للحلم مواضع يحسن فيها. ومواضع لا يحسن فيها بل إنه لا يسمى حلما وإنما يسمى جبنا أو نفاقا. فلا حلم مع أعداء الله ورسوله وأعداء الدين وأعداء الأمة الإسلامية. فهؤلاء يؤخذون بالشدة والقوة. ولقد وصف الله المؤمنين بأنهم{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[1]. ويقول عن الزناة وهاتكي الأعراض حينما يقام عليهم الحد:{وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ}[2]. وإذا أنقص الوالي سوطا من هذا الحد يسأله الله يوم القيامة لماذا نقصت هذا السوط؟ فإذا قال أخذتني الرأفة به. قال الله: وهل أنت أرأف به منى؟!. يقول الله لنبيه ﷺ{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[3]. وكان رسول الله ﷺ إذا انتهكت حرمات الله يغضب حتى يعرف فى وجهه الغضب... قال الإمام على رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا. فإذا غضب للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. فالحلم قد يكون محموداً وقد يكون غير محمود. وليس معنى الحلم ألا يغضب الإنسان أصلاً. فهذا شيء ينافى الفطرة. ولكن الحلم هو الذي يتقيد بقيد الدين والعقل. قال الإمام الشافعي: (من استغضب فلم يغضب فهو حمار. ومن استرضى فلم يرضَ فهو شيطان). وقال القائل:

ولا يقيم على ضيم يراد به ::: إلا الأذلان: عير الحي والوتد[4]
هذا على الخسف مربوط برمته ::: وذا يشج فلا يرثى له أحد

فالحليم يغضب ولا يسيطر على غضبه حينما تنتهك حرمات الله. ويسيطر على غضبه حينما يكون الأمر متصلاً بذات نفسه... جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يطلب منه شيئا. فأعطاه وقال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كفوا. ثم قام ودخل منزله. وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابي منك شيء من ذلك. فإن أحببت فقل بين

---

(١) سورة الفتح. الآية الأخيرة.
(٢) سورة النور. الآية رقم (٢).
(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٩).
(٤) عير الحى: الحمار - والوتد: العصى التى تثبت فى الأرض لتشد الخيام..

أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها إليك. قال: نعم. فلما كان الغد أو العشى جاء فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي. أكذلك يا أعرابي. فقال الأعرابي: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه. فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا. فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها وأعلم. فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها هونا هونا. حتى جاءت واستنامت وشد عليها رحلها واستوي عليها. وإني لو تركتكم حيث قال ما قال فقلتموه دخل النار.

وفى تشريع الصيام ما يربى هذا الخلق وينميه عند الصائم. وقد علمنا الرسول ﷺ أن الصائم إذا سابه أحد أو شاتمه فلا يرد عليه. وإنما يقول: إني صائم.. إني صائم. وهذا تدريب عملي علي الحلم. ولكن كثيرا من الصائمين الذين لم يلتزموا بهذا الخلق الكريم نراهم يثورون لأتفه الأسباب. وربما اعتذر بعضهم عن سفاهته بأنه صائم. أو ربما اعتذر غيره عنه بنفس العذر. وهو عذر أقبح من ذنب لأنه نسب إلى الصوم أنه يجعل الخلق سيئا. وحاشا لتشريع من تشريعات الله تعالي أن تؤدي إلي ذلك. فالعكس هو الصحيح... فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. والزكاة تزرع الحب والمودة بين الفقير والغنى. والصوم يدرب النفس على الحلم والأناة والصبر والمراقبة لله. والحج فيه منافع للناس. ومن أجل أهدافه ألا يرفث الحاج ولا يفسق... وهكذا. فليت المسلمين اليوم يتحلوا بمكارم الأخلاق. ويلتزموا بالآداب الإسلامية عامة وبخلق الحلم خاصة. وبدلاً من أن يلعنوا الظلام يوقدوا فيه شمعة تهدى الحائر وترشد الضال... وصدق القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا ::: وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ::: ولو نطق الزمان لنا... هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ::: ويأكل بعضنا بعضا عيانا

* * * * *